كليلة ودمنة

اسم لكتاب شهير، ترجمه (عبد الله بن المقفع) عن اللغة الفارسية، بأسلوبه الشيق وبيانه العذب، وضمنه الكثير من الحكم والأمثال، والعبر التي تدور حول إصلاح الأخلاق وتهذيب العقول، وكان يميل إلى إبراز عيوب المجتمع بالصراحة تارة وبالرمز تارة أخرى، وقد حظي هذا الكتاب كسائر كتبه بشهرة واسعة بسبب بيانه الذي يأخذ بألباب القراء، ويستحوذ على اهتماماتهم، ومن تناول أحد كتبه فإنه لا يكاد يطيق تركه حتى يفرغ من قراءته كله، وتلك صفة لم تتأت إلا لقليل من الأدباء والكتاب من عرب وعجم. وقد أخذ (ابن المقفع) في (كليلة ودمنة) بالمنهج الرمزي، ولم يعمد إلى التصريح إلا لماماً، فلجأ إلى إقامة حوارات على ألسنة الحيوان، فيها الأمثال والحكم والعبر بأعذب لسان، وأجمل بيان، فكان موفقاً إلى حد بعيد، في إيصال الفكرة التي يريد.

عبد الله ابن المقفع

ناثر كبير وأديب خطير، أصله من بلاد الفرس، ولد بمدينة جور سنة (٧٢٤م/١٠٦هـ) وكانت وفاته سنة (٧٥٩م/١٤٢هـ)، واسمه الأصلي (روزبه) ووالده يدعى (داذويه)، ولما اعتنق الإسلام سمي (عبد الله) وكني بأبي محمد. أما لقب (المقفع) فيرجع إلى أن أباه كان قد ولاه (الحجاج بن يوسف) خراج فارس فاختلس بعض المال، فأمر به (الحجاج) فضرب على يديه فتقفعتا، فلقب بعدها بالمقفع.

كان (عبد الله بن علي) والياً على الشام لابن أخيه (أبي جعفر المنصور) فلما غضب عليه (المنصور)، عمد إلى مطاردته، فقصد البصرة، وكان فيها أخواه سليمان وعيسى، فطلبه (المنصور) منهما، فرفضا تسليمه إلا بشروط تكفل له الأمان. ولم يجد (المنصور) بداً من القبول، وكلفا (ابن المقفع) بكتابة الشروط، فتشدد فيها، مما أسخط (المنصور) عليه.

وحين تولى (سفيان بن معاوية) البصرة لأبي جعفر المنصور، كان (ابن المقفع) يسخر من كبر أنفه، فنقم منه ذلك، وأوغر عليه صدر (المنصور) فأمره بقتله، وذكر في أسباب ذلك اتهامه بالزندقة، وهو منها براء، لأن آثاره ليس فيها على ذلك دليل.

تعلَّم (ابن المقفع) العربية، حتى بزَّ أهلها، وكان يتمتع بأسلوب رصين رائع، لا سبيل إلى محاكاته، مما جعل الأدباء يطلقون عليه (السهل الممتنع).

وكان يعتز كثيراً بأدب قومه الفرس، وقد أمكن له نقل الحكمة الفارسية والهندية إلى العربية، وكذلك فعل بكتب المنطق وعلم الاجتماع والأخلاق اليونانية، فارتفع النثر العربي بقلمه إلى أرقى مراتبه.

أشهر آثار ابن المقفع التي وقعت في أيدينا (الأدب الصغير) و (الأدب الكبير) و (كليلة ودمنة) وقد كتبه على ألسنة الحيوان، وضمنه الكثير من الحكم والأمثال، والمواعظ والعبر، بأسلوب فذ ممتع جذاب.

وقد خسرت اللغة العربية بمصرعه أديباً فصيحاً، منقطع القرين.

obeikandl.com

مقدمة الكتاب

قَدَّمها بهنودُ بنُ سَحوانَ ويُعرفُ بعليِّ بن الشاهِ الفارسيِّ، ذكرَ فيها السببَ الذي مِنْ أجلهِ عمِلَ بيدبا الفيلسوفُ الهنديُّ رأسُ البراهمةِ[1] لِدَبْشَليمَ ملكِ الهندِ كتابَهُ الذي سماه «كليلةَ ودِمنةَ» وجعله على ألسُنِ البهائم والطيرِ صيانةً لغرضِهِ فيه من العوامِّ، وَضِنًّا بما ضمَّنه عن الطغام[2]، وتنزيهاً للحكمة وفنونها، ومحاسنها وعيونها[3]، إذ هي للفيلسوفِ مندوحةٌ[4] ولخاطره مفتوحةٌ، ولِمُحبيها تثقيف[5]، ولطالبيها تشريفٌ، وذكَرَ السببَ الذي من أجلهِ أنفذ[6] كسرى أنو شِرْوانُ بنُ قُباذَ ابنِ فيْرُوزَ ملكُ الفُرْسِ بَرْزَوَيْهِ رأسَ أطِبَّاءِ فارسَ إلى بلادِ الهندِ لأجل كتابِ «كليلةَ ودِمْنَةَ»

وما كان من تلطُّفِ بَرْزَوَيْهِ عند دخولِهِ إلى الهندِ حتى حضر إليه الرجُلُ الذي استنسخهُ له سرًّا من خزانةِ الملكِ ليلاً مع ما وجد من كُتبِ علماءِ الهندِ، وقد ذكَرَ الذي كان من بَعْثَةِ بَرْزَوَيْهِ إلى مملكةِ الهند لأجل نَقْلِ هذا الكتابِ.

وذكرَ فيها ما يلزمُ مُطالِعَهُ منْ إتْقانِ قراءَتِهِ والقيامِ بدراسته والنظرِ إلى

---

(١) البراهمة: قوم من الهند. لا يجوزون على الله تعالى إرسال الرسل (انظر القاموس للفيروزابادي).
(٢) الضِّنُّ: البخل. والطغام: السَّفِلة.
(٣) عيونها: خيارها.
(٤) مندوحة: فسحة.
(٥) ثَقَّف: قَوَّم.
(٦) أنفذ: بعثَ.

باطنِ كلامهِ وأنَّهُ إن لم يكُنْ كذلك لم يُحْصَلْ على الغاية منه. وذكَرَ فيها حضورَ بَرْزَوَيْهِ وقراءَة الكتاب جهراً وقد ذكرَ السببَ الذي من أجله وضَعَ بُزُرْجُمهْرَ[١] باباً مفرداً يُسَمَّى بابَ بَرْزَوَيْهِ الطبيبِ وذكَرَ فيه شأنَ بَرْزَوَيْهِ من أوَّل أمرِهِ وآنِ[٢] مولده، إلى أن بلغَ التأديبَ وأحبَّ الحكمةَ واعتبر[٣] في أقسامها. وجعله قبَل بابِ الأسدِ والثورِ الذي هو أوَّلُ الكتابِ.

[الباعث على تأليف الكتاب]

قال عليُّ بنُ الشاهِ الفارسيُّ: كان السببُ الذي من أجله وضعَ بيدبا الفيلسوفُ لدَبشليمَ ملكِ الهندِ كتابَ «**كليلةَ ودمنةَ**»:

أنَّ الاسكندرَ ذَا القرنين الرُّومِيَّ لما فرغَ مِنْ أمْرِ الملوكِ الذينَ كانوا بِناحِيَةِ المَغْرِبِ سارَ يريدُ مُلوكَ المشرقِ مِنَ الفُرْسِ وغيْرِهِمْ.

فَلَمْ يَزَلْ يُحارِبُ مَنْ نَازَعَهُ، ويُواقِعُ مَنْ واقَعَهُ، ويسالِمُ مَنْ وادَعَهُ مِنْ مُلُوكِ الفُرْسِ وهُمُ الطبقة الأولى حتى ظَهرَ عليهِمْ وَقَهرَ مَنْ نَاوَأَهُ[٤] وتَغَلَّبَ على مَنْ حارَبَهُ فتفرَّقُوا طَرَائِقَ[٥]، وتمزَّقُوا حَزَائِقَ[٦]، فتوجَّهَ بالجنُودِ نحوَ بلادِ الصين فبدأ في طريقهِ بملكِ الهندِ لِيَدْعُوَهُ إلى طاعتِهِ والدُّخولِ في ملَّتِهِ وولايَتِهِ.

وكان على الهندِ في ذلكَ الزَّمانِ ملكٌ ذُو سطوةٍ وبأسٍ، وقوَّةٍ ومِراسٍ[٧]، يُقالُ لهُ فَوْرٌ فَلَمَّا بَلَغَهُ إقبالُ ذي القرنين نحوهُ تأهَّبَ لمحارَبته،

---

(١) وزير كسرى عمر كثيراً.
(٢) آن: حين.
(٣) اعتبر: نَظَرَ.
(٤) ناوأه: ناصبه العداوة.
(٥) طرائق: فرق.
(٦) حزائق: مفردها حزيقة وهي القطعة من كل شيء.
(٧) مراس: بأس.

واستعدَّ لمجاذبته[١]، وضمَّ إليه أطرافهُ[٢]، وجَدَّ في التألُّبِ[٣] عليه وجَمَعَ له العُدَّةَ في أسرعِ مُدَّةٍ، الفِيلَةَ المُعَدَّةَ للحُروبِ، والسباعَ المُضَرَّاةَ بالوثوبِ[٤]، مع الخيولِ المُسْرَجَةِ والسُّيوفِ الْقواطِعِ والحِرابِ اللَّوَامِعِ.

فلما قرُبَ ذو القرنيْنِ من فَوْرِ الهِنديِّ وبلَغهُ ما قد أعدَّ له من الخيْلِ، التي كأنها قِطَعُ الليْلِ، مما لم يلقَهُ بمثلِهِ أحدٌ من الملوكِ الذين كانوا في الأقاليم. تَخوَّفَ ذو القرنيْن من تقصيرٍ يقعُ به إن عجَّلَ المبارزةَ، وكان ذو القرنيْنِ رجلاً ذا حيَلٍ ومَكايدَ مَعَ حُسْنِ تدبيرٍ وتجْربةٍ.

فرأى إعمالَ الحيلةِ والتمهُّلَ واحتفرَ خَندَقاً على عسكره وأقام بمكانهِ لاستنباطِ الحيلةِ والتدبير لأمرهِ وكيف ينبغي له أن يُقْدِمَ على الإيقاعِ[٥] به، فاستدعى المنَجِّمين وأمرهم بالاختيار ليومٍ موافِقٍ تكونُ له فيه سعادةٌ لمحاربة مَلِكِ الهندِ والنُّصرةِ عليه، فاشتغلوا بذلكَ، وكان ذو القرنينِ لا يمرُّ بمدينةٍ إلا أخذَ الصُّنَّاعَ المشهورينَ من صُنَّاعِها بالحِذْقِ من كلّ صِنْفٍ، فنتجتْ له همتُهُ ودلَّتْهُ فِطنتُه أن يتقدَّمَ إلى الصُّنَّاعِ الذين معه أن يصنَعوا خيْلاً من نُحاسٍ مجوَّفةً عليها تماثيلُ من الرجال على بكَرٍ تجري إذا دُفِعَتْ مرَّتْ سِرَاعاً، وأمرَ إذا فرَغوا منها أن تُحشَى أجوافُها بالنِّفْطِ والكِبريتِ وتُلَبَّسَ وتُقَدَّمَ أمامَ الصفِّ في القلبِ، ووقتَ ما يلتقي الجمعانِ تُضرَمُ فيها النيرانُ فإن الفيَلَةَ إذا لَفَّتْ خراطيمَها على الفرسانِ وهي حاميةٌ ولَّتْ هاربةً، وأوعزَ إلى الصُّناعِ بالتشمير[٦] والانكماش[٧] والفراغ منها، فجدُّوا في ذلك وعجَّلوا، وقرُبَ

---

(١) المجاذبة: المنازعة.
(٢) أي جمع قواه.
(٣) التألب: التجمع.
(٤) ضراه: أغراه. بالوثوب: القفز.
(٥) الإيقاع: البطش.
(٦) التشمير: الجد.
(٧) انكمش: أسرع.

أيضاً وقت اختيارِ المنجّمين فأعادَ ذو القرنين رُسلَهُ إلى فَوْرٍ بما يدعوهُ إليه من طاعتهِ، والإذعانِ لدوْلتهِ فأجابَ جوابَ مُصِرٍّ على مخالفته، مُقيمٍ على محاربتهِ.

فلما رأى ذو القرنين عزيمتَهُ سارَ إليه بأُهْبَتهِ[١] وقدَّمَ فَوْرٌ الفِيلَةَ أمامَه ودَفَعَتِ الرّجالُ تلكَ الخَيْلَ وتماثيلَ الفُرْسانِ فأقبلتِ الفِيَلةُ نحوَها ولفَّتْ خراطيمَها عليها فلما أحسَّتْ بالحرارةِ ألقتْ مَنْ كان عليها وداسَتْهم تحت أرجُلِها ومضت مهزُومةً هاربةً لا تَلوى على شيءٍ[٢] ولا تمرُّ بأحدٍ إلا وطِئَتْهُ وتَقَطَّعَ[٣] فَوْرٌ وجَمْعُه وتَبِعهم أصحابُ الاسكندَرِ وأثْخَنُوا فيهم الجِراحَ[٤] وصاح الاسكندَرُ: يا مَلِكَ الهندِ ٱبْرُزْ إلينا وأبْقِ على عُدَّتِكَ وعيالِكَ ولا تحملْهم إلى الفَناءِ فإنه ليسَ مِنَ المُروءةِ أَن يرمِي المَلكُ بِعُدَّتِهِ في المهالكِ المتلفةِ والمواضع المجحفةِ[٥] بل يَقيهِمْ بماله ويدفعُ عنهم بنفسهِ، فابْرُزْ إليَّ ودَعِ الجُنْدَ فأيُّنا قهرَ صاحبَهُ فهو الأسعدُ. فلما سمعَ فَوْرٌ من ذي القرنين ذلكَ الكلامَ دعتْهُ نفسُهُ إلى مُلاقاتهِ طمعاً فيه وظنَّ ذلك فُرصةً، فبرزَ إليه الاسكندر فتجاوَلا على ظَهْرِي فَرَسَيْهما ساعاتٍ من النهار ليس يَلْقَى أحدُهما من صاحبه فُرصةً ولم يزالا يتعاركانِ فلمَّا أعيا[٦] الاسكندرَ أمرُهُ ولم يجدْ فرصةً ولا حيلةً أَوْقَعَ ذو القرنيْن في عسكرهِ صيْحةً عظيمةً ارتَجَّتْ لها الأرضُ والعساكرُ، فالتفتَ فَوْرٌ عندما سمعَ الزعقةَ وظنَّها مكيدةً في عسكره، فعاجله ذو القرنين بضربْةٍ أمالَتْهُ عن سَرْجِهِ وأتبعَها بأُخرَى فوقعَ إلى الأرضِ، فلما رأتِ الهنودُ ما نزَلَ بهم وما صارَ إليه مَلِكُهم حَملوا على

(١) أهبته: استعداده.
(٢) لا تنتظر.
(٣) تقطع: تفرق.
(٤) أكثروا الجرحى في عدوهم.
(٥) المجحفة: التي لا تطاق.
(٦) أعيا: أنهك.

الاسكندَرِ فقاتلوهُ قتالاً أحَبُّوا معه الموْتَ، فوعدهم من نفسهِ الإحسانَ ومنحهُ الله أكتافَهُمْ[١] فاستولى على بلادهمْ ومَلَّكَ عليهم رجُلاً من ثِقاته وأقامَ بالهندِ حتى استوسق[٢] لهُ ما أراد من أمرهم واتفاقِ كلمتهم ثم انصرَفَ عن الهنْدِ وخلف ذلك الرَّجُلَ عليهم ومضى مُتَوَجهاً نحوَ ما قصدَ لهُ.

فلمَّا بَعُدَ ذو القرنين عن الهند بجيوشهِ تغيَّرَتِ الهنودُ عما كانوا عليه من طاعَةِ الرجُلِ الذي خلَّفَهُ عليهم وقالوا: ليسَ يَصلُحُ لِلسّياسةِ ولا تَرضَى الخاصةُ والعامَّةُ أن يُملِّكوا عليهم رجلاً ليسَ هو منهم ولا من أهلِ بُيوتهم فإنه لا يزالُ يَستذِلهم ويستقلُّهم، واجتمعوا يُملِّكون عليهم رجلاً من أولاد ملوكِهم فملَّكوا عليهم مِلكاً يقالُ له دَبشليمُ، وخلعوا الرجلَ الذي كان خلَّفَهُ عليهمِ الاسكندرُ. فلما اسْتَوْسَقَ له الأمرُ واستقرَّ له المُلكُ طَغَى وبَغَى وتجبَّرَ وتكبَّرَ وجعل يَغْزو مَنْ حولَهُ من الملوكِ وكان مع ذلك مؤيَّداً مظفَّراً منصوراً فهابتهُ الرعيةُ. فلما رأى ما هو عليهِ من المُلْك والسَّطْوَةِ عبِث بالرعيَّةِ واستصغرَ أمرَهُمْ وأساءَ السيرَةَ فيهمْ وكان لا يرتقي حالُهُ إلاَّ ازدادَ عُتُوًّا[٣] فمكث على ذلك بُرْهَةً مِنْ دهره.

[مشاورة الفيلسوف بيدبا لتلاميذه:]

وكانَ في زمانه رجلٌ فيلسوفٌ مِنَ البراهمة فاضلٌ حكيمٌ يُعرفُ بفضله ويُرْجَعُ في الأمور إلى قوله يقال له بيدبا. فلما رأى الملكَ وما هو عليه من الظُّلم للرَّعِيَّةِ فكرَ في وجْهِ الحيلةِ في صرفهِ عمَّا هو عليه وردَّه إلى العدلِ والإنصافِ.

فجمعَ لذلك تلاميذَهُ وقال: أتعلمونَ ما أريدُ أن أشاورَكم فيه؟ اعلموا

(١) أي مكّنه منهم.
(٢) استوسق: تهيأ.
(٣) عتواً: كبراً.

أني أطلْتُ الفكرةَ في دَبشليمَ وما هو عليه مِنَ الخروجِ عن العدل ولُزومِ الشَّرِّ ورَداءَةِ السيرةِ وسوء العِشْرَةِ معَ الرَّعيةِ؛ ونحنُ ما نروضُ أنفسنا[١] لمثلِ هذه الأمورِ إذا ظهرت مِنَ الملوكِ إلا لِنَرُدَّهُمْ إلى فعلِ الخيرِ ولُزُومِ العدلِ. ومتى أغفلنا[٢] ذلكَ وأَهملناهُ لزمَنا من وقوعِ المكروه بنا وبُلوغِ المحذوراتِ إلينا إذ كنَّا في أنْفُسِ الجهَّالَ أَجهل منهم، وفي العُيونِ عندهم أقلَّ منهم. وليس الرأيُ عندِيَ الجَلاَءَ عنِ الوطنِ، ولا يَسعُنا في حكْمَتِنا إبقاؤُه على ما هو عليه من سوءِ السيرة وقُبحِ الطَّريقَة، ولا يُمكنُنا مجاهدتُه[٣] بِغيرِ ألسنتِنا. ولو ذهبْنا إلى أن نستعينَ بغيرنا لم تتهيَّأ لنا معاندتُهُ وإن أحَسَّ منَّا بمخالفتِه وإنكارنا سوءَ سيرتَه لكانَ في ذلك بوارُنا[٤]. وقد تعلمون أنَّ مجاورة السَّبُعِ والكلبِ والحيَّةِ والثَّوْرِ على طِيبِ الوطن ونضارةِ العَيْشِ[٥] غَدْرٌ بالنَّفْسِ.

وإنَّ الفيلسوفَ لحقيقٌ أن تكون همتُهُ مصروفةً إلى ما يُحصِّنُ به نفْسَه مِنْ نوازلِ المكروهِ ولواحقِ المحذورِ. ويدفعُ المخوفَ لاستجلابِ المحبوب. ولقد كنتُ أسمعُ أنَّ فيلسوفاً كتبَ إلى تلْمِيذه يقول: إنَّ مُجاورَ رجالِ السُّوءِ ومصاحِبهم كراكِبِ البَحْرِ إنْ هو سَلِمَ منَ الغرقِ لم يسْلَمْ مِنَ المخاوف، فإذا هو أَوردَ نفْسَهُ موردَ الهلكاتِ ومصادرَ المخوفاتِ عُدَّ منَ الحميرِ التي لا نَفْسَ لها، لِأَنَّ الحيواناتِ البهيميَّةِ قد خُصَّتْ في طبائِعها بمعرفَةِ ما تكتسِبُ به النَّفْعَ وتتوقَّى المكروهَ وذلكَ أَنَّنا لم نرها تُورِدُ أنفُسَها مَوْرِداً فيه هَلَكتُها، وأَنَّها متَى أَشْرَفَتْ على موْرِدٍ مُهلِكٍ لها مالت بطبائعِها التي رُكِّبتْ فيها شُحًّا بأنفسها وصيانةً لها إلى النُّفور والتباعُدِ عنه، وقد

(١) نوطن أنفسنا.

(٢) أغفلنا: تركنا.

(٣) المجاهدة: المقارعة.

(٤) بوارنا: فناؤنا.

(٥) رغده.

obeikandi.com

جمعْتكم لهذا الأمر لأنكم أُسرتي ومكانُ سرّي وموضعُ معرفتي وبكم أعتضدُ(١) وعليكم أعتمدُ فإنّ الوحيدَ في نفسه والمُنْفردَ برأيه حيث كان فهو ضائعٌ ولا ناصرَ له، على أن العاقلَ قد يبلغُ بحيلتِه ما لا يَبلُغ بالخَيْل والجُنود.

[حكاية القُبَّرة والفيل]

والمَثلُ في ذلك أنَّ قُبَّرَةً(٢) اتَّخذَتْ أُدْحيَّةً(٣) وباضت فيها على طريق الفيل، وكان للفيلِ مشرَبٌ يتردَّدُ إليه، فمرَّ ذاتَ يوم على عادته لِيَرِدَ مَوْرِدَهُ فوَطِىءَ عُشَّ الْقُبَّرَةِ وهشَمَ بيضَها وقتَلَ فِراخَها، فلما نَظَرتْ ما ساءها علمتْ أنَّ الذي نالها منَ الفيلِ لا من غيرِهِ، فطارتْ فوقعتْ على رأسِهِ باكيةً ثم قالتْ: أيها الملكُ! لِمَ هَشَمْتَ بيضي وقتلْتَ فِراخِي وأنا في جِوارِكَ؟ أَفَعَلْتَ هذا اسْتصغاراً منكَ لأمري واحتقاراً لشأني؟ قال: هوَ الذي حملَني على ذلكَ. فترَكَتْهُ وانصرفتْ إلى جَمَاعةِ الطَّيْر فشكتْ إليها ما نالها من الفيل، فقلْنَ لها: وما عسى أن نبْلُغَ منهُ ونحنُ طيورٌ؟ فقالت لِلعقاعِيقِ والغِرْبانِ: أُحِبُّ منكُنَّ أَن تصِرْنَ مَعي إليه فتَفْقأنَ عينيْه فإني أَحْتالُ له بعد ذلك بحيلةٍ أخرى.

فأجَبْنَها إلى ذلك وذَهَبْنَ إلى الفيل فلم يزَلْنَ يَنْقُرْنَ عينيه حتى ذَهَبْنَ بهما وبقيَ لا يهتدي إلى طريق مَطْعمِه ومشْرَبه إلا ما يَقُمُّهُ(٤) من موْضعه، فلما علمتْ القُبَّرَة ذلك منهُ جاءَتْ إلى غَدِيرٍ فيه ضَفادعُ كثيرةٌ فشكتْ إليها ما نَالها من الفيل، قالت الضَّفادعُ: ما حيلَتُنا نحنُ في عِظَمِ الفيل، وأَيْنَ نَبْلغ

---

(١) أتقوّى.
(٢) القبرة: طائر كالعصفور.
(٣) موضع بيض النعام في الرمل.
(٤) تقمم: تتبع الكناسات.

منهُ؟ قالتْ: أَحِبُّ منكنَّ أن تصِرْنَ معي إلى وَهْدَةٍ(١) قريبةٍ منه فَتَنْقِقْنَ(٢) فيها وتَضْجِجْنَ فإنه إذا سَمعَ أَصواتَكنَّ لم يشُكَّ في الماء فيهوي فيها. فأجبنَها إلى ذلكَ واجتَمَعْنَ في الهاوية فَسمعَ الفيلُ نَقِيقَ الضَّفادعِ وقدْ جهَدَهُ العطش فأقبلَ حتى وقعَ في الوَهْدَةِ فانْحَطَمَ(٣) فيها وجاءتِ القُبَّرَة تُرفرفُ على رأسِهِ وقالتْ: أيُّها الطاغي المغترُّ بقُوَّتِهِ المحتقِرُ لأمري كيفَ رأيتَ عِظَمَ حِيلتي مع صِغَرِ جُثَّتي عند عِظَمِ جُثَّتكَ وصِغَرِ هِمَّتِكَ!؟.

[رأي تلاميذ بيدبا:]

فليُشِرْ كلُّ واحدٍ منكم بما يسنحُ(٤) له من الرأي.

قالوا بأجمعهم: أيها الفيلسُوفُ الفاضلُ والحكيمُ العادلُ أنتَ المقدَّمُ فينا والفاضل علينا، وما عسى أن يكونَ مبلغُ رأينا عندُ رأيكَ، وفَهْمِنا عندَ فَهْمِكَ، غير أننا نعلمُ أن السِّباحَةَ في الماء معَ التمساح تغريرٌ(٥)، والذنبُ فيه لمنْ دخلَ عليه في موْضعه. والذي يستخْرجُ السُّمَّ من نابِ الحيَّةِ فيبتلعُه ليجرِّبَهُ على نفسِه فليسَ الذنْبُ للحيَّةِ، ومن دخلَ على الأسدِ في غابتهِ لم يأمَنْ وثْبَتَهُ، وهذا الملِكُ لم تُفْزِعْهُ النوائبُ ولم تُؤَدِّبْهُ التجارِب، ولَسْنا نأمنُ عليكَ من سَوْرَتِه(٦) ومُبادرتهِ بسُوءٍ إذا لَقِيتَهُ بغير ما يحبُّ. فقال الحكيمُ بَيْدَبَا: لَعَمْرِي لقد قُلتم فأحسنتم، لكنَّ ذا الرَّأْيِ الحازمَ لا يدَعُ أن يُشَاوِرَ مَنْ هوَ دونَهُ أو فوْقَهُ في المنزلةِ، والرأيُ الفرْدُ لا يُكتَفى به في الخاصَّةِ ولا يُنتفَعُ به في العامَّةِ، وقد صحَّتْ عزيمتي على لقاءِ دَبْشَلِيمَ، وقد سمعتُ

(١) الوهدة: المنخفض من الأرض.
(٢) النقنقة: صوت الضفادع.
(٣) انحطم: تكسر.
(٤) يسنح: يخطر.
(٥) تغرير: تعريض النفس للهلاك.
(٦) الحدة.

obeikandi.com

مقالتَكم وتبيَّنَ لي نصيحتكم والإشْفاقُ عليَّ وعليكم، غَيْرَ أني قد رأيتُ رأياً وعزَمْتُ عزْماً وستعرفونَ حديثي عندَ الملِكِ ومُجاوَبتي إيَّاهُ فإذا اتَّصلَ بكم خروجي من عنْدِه فاجتَمِعُوا إليَّ. . . وصرَفَهمْ وهم يدعونَ لهُ بالسلامةِ.

[الملك دبشليم والفيلسوف بيديا:]

ثُمَّ إنَّ بَيْدَبَا اخْتارَ يوماً للدُّخولِ على الملكِ، حتى إذا كان ذلكَ الوَقْتُ ألقَى عليه مُسُوحَهُ[١] وهي لِباسُ البراهمَةِ وقصدَ بابَ الملكِ، وسأل عن صاحب إذنه فأُرْشِدَ إليه وسلَّمَ عليه وأعلمَهُ وقالَ لهُ: إني رجُلٌ قصدْتُ الملِكَ في نصيحةٍ، فدخلَ الآذِنُ على الملك في وقته، وقال: بالباب رجُلٌ من البراهمة يُقالُ له بيدَبا ذكرَ أنَّ معهُ لِلملِك نصيحةً.

فأذنَ له فدخلَ ووَقَفَ بين يديه وكَفَّرَ[٢] وسجدَ لهُ واستوَى قائماً وسكتَ وفكَّرَ دَبشَليمُ في سُكوته وقالَ: إنَّ هذا لم يَقْصِدْنا إلاَّ لأمْرَيْنِ. إمَّا أن يلتمسَ منّا شيئاً يُصلحُ به حالَه، أو لأَمْرٍ لحِقَهُ فلم يكن لهُ به طاقةٌ.

ثم قال: إن كان للملوك فضلٌ في مَمْلكتها فإنَّ للحكماءِ فضلاً في حِكْمتها أعظَمَ، لأن الحُكماءَ أغنياءُ عن الملوكِ بالعِلْم وليسَ الملوكُ بأغنياءَ عن الحكماء بالمال، وقدْ وجدْتُ العلمَ والحياءَ إلْفيْنِ مُتآلفَيْنِ لا يَفترقانِ متى فُقِدَ أحدُهما لم يوجد الآخرُ، كالمتصافِيَيْنِ[٣] إن عدِمَ منهما أحدٌ لم يَطِبْ صاحبُه نفساً بالبقاءِ بعده تأسفاً عليه، ومَنْ لم يستحْيِ من الحكماء ويُكَرِّمْهم ويعرِفْ فضلَهم على غيرهم ويَصُنْهم عن المواقف الواهنةِ[٤]

---

(١) مسوحه: جمع مِسْح وهو: ثوب من الشعر.

(٢) أن يومئ بالرأس من غير سجود.

(٣) المتصافيين: المتوادين.

(٤) الواهنة: الضعيفة.

ويُنزِّهْهُمْ عن المواطن الرَّذْلَةِ(١) كان ممَّنْ حُرِمَ عقلَهُ وخسِرَ دُنْياهُ وظَلَم الحكماء حقوقَهم وعُدَّ من الجُهَّال.

ثم رفع رأسَه إلى بَيدبا وقال له: نظرتُ إليك يا بيدبا ساكتاً لا تَعْرِضُ حاجتَكَ ولا تذْكرُ بُغْيَتَكَ فقلتُ إنَّ الذي أسكَتهُ هَيْبَةٌ ساورَتْه(٢) أو حَيْرَةٌ أدركَتْهُ، وتأمَّلْتُ عند ذلك في طولِ وُقوفِكَ وقلتَ لم يكن لبيدبا أن يطرُقَنا(٣) على غير عادةٍ إلا لأمرٍ حرّكهُ إلى ذلك، فإنه من أفضل أهلِ زمانهِ فهلا نسأله عن سببِ دخوله، فإن يكنْ من ضَيْمٍ نالَه كنتُ أوْلى مَنْ أخذَ بيدِه وسارعَ في تشريفِه وتقدَّمَ في البلوغِ إلى مراده وإعزازِه، وإن كانت بُغيتُه عَرَضاً من أعَراض الدُّنيا أمَرْتُ بإرضائه من ذلك فيما أَحَبَّ، وإن يكن من أمرِ المُلْكِ ومما لا ينبغي للملوكِ أن يبذلوهُ من أنفسِهم ولا ينقادُوا إليه نظرْتُ في قَدْرِ عُقوبتِه، على أن مثلَهُ لم يكن ليجترىء على إدخال نفسهِ في بابِ مَسألة الملوك، وإن كان شيئاً من أمور الرّعيةِ يقصِدُ فيه أن أَصرفَ عِنايتي إليهمْ نظرتُ ما هوَ، فإن الحُكماء لا يُشيرونَ إلا بالخير والجهَّالَ يُشيرُونَ بضدِّهِ، وأنا قدْ فَسحْتُ(٤) لك في الكلامِ. فلما سمعَ بيدبا ذلك من الملكِ أَفْرَخَ عنه رَوْعُه(٥) وسُرِّيَ(٦) ما كان وقعَ في نفسِه من خوفهِ وكفَّرَ له وسجدَ ثم قامَ بين يديه وقال:

أَولُ ما أَقولُ أَني أَسألُ الله تعالى بقاءَ الملكِ على الأبد ودوامَ مُلكه على الأمَدِ، لأن الملكَ قد منَحني في مَقامي هذا مَحلاً جَعلهُ شرفاً لي على

(١) الرذلة: الرديئة.
(٢) ساورته: غالبته.
(٣) يطرقنا: يأتينا.
(٤) فسحت: سمحت.
(٥) ذهب خوفه.
(٦) سُرِّيَ: زال.

جميعِ مَنْ بَعْدي من العُلماء، وذِكْراً باقياً على الدَّهْرِ عند الحُكماء. ثم أقبل على الملكِ بوجهه مُستبشِراً به فَرِحاً بما بدَا له منه وقال: قد عطفَ عليَّ الملكُ بكرَمه وإحسانه، والأمرُ الذي دعاني إلى الدخول على الملكِ وحملني على المخاطرَة في كلامَه والإقدام عليه نصيحةً اخْتصصتُهُ بها دون غيره، وسيعلمُ مَنْ يتَّصلُ به ذلك أني لم أُقصِّرُ عن غايةٍ فيما يجبُ للمولى على الحكماء، فإن فَسَحَ في كلامي وَوَعاهُ عني فهو حقيقٌ بذلك وما يَراهُ، وإنْ هُوَ أَلْقاهُ فقد بلَغْتُ ما يلزَمُني وخرَجْتُ من لَوْمٍ يَلْحقُني. قال الملكُ: يا بيدَبا تكلَّمَ مهما شئتَ فإني مُصغٍ إليكَ ومُقبِلٌ عليك وسامعٌ منكَ حتى أَستفرغَ ما عندك إلى آخره وَأُجازيَكَ على ذلك بما أَنتَ أَهلهُ.

قال بيدَبا: إني وجدْتُ الأُمورَ التي اختصَّ بها الإنسانُ من بينِ سائرِ الحيوانِ أَربعةَ أَشياء وهي جُمَّاعُ[١] ما في العالَمِ.

وهي الحكمةُ والعفّة والعقلُ والعدلُ. فالعِلْمُ والأدبُ والرَّوِية[٢] داخلةٌ في باب الحكمةِ، والحلمُ والصّبر والوَقار داخلةٌ في باب العقْلِ، والحَياء والكرَم والصِّيانةُ والأنَفَة[٣] داخلةٌ في باب العفَّة، والصّدْقُ والإحسانُ والمراقبةُ[٤] وحُسْنُ الخلقِ داخلةٌ في باب العدل.

وهذه هيَ المحاسنُ، وأضدادُها هيَ المساوىءُ، فمتى كَمُلَتْ هذه في واحدٍ لم يُخْرِجْهُ النقصُ في نعمته إلى سوءِ الحظِّ من دُنْياهُ ولا إلى نقْصٍ من عُقباهُ ولم يتأسفْ على ما لم يُغْنِ التوفيقُ ببقائه ولم يُحْزِنه ما تجري به المقاديرُ في مُلكه ولم يُدْهَشْ عندَ مكروهٍ، فالحكمةُ كَنْزٌ لا يَفْنى على

(١) جماع: أخلاط الناس.
(٢) الروية والتروي: إعمال الفكر.
(٣) الأنفة: الترفع عن الدنايا.
(٤) المراقبة: الخوف من الله.

الإنفاقِ، وذخيرَةٌ لا يُضرَبُ لها بالإملاق، وحُلةٌ لا تَخْلَقُ جدَّتها، ولَذَّةٌ لا تُصْرَمُ مدَّتها، ولئن كنتُ عندَ مُقامي بينَ يدَي الملكِ أمسكتُ عن ابتدائه بالكلام فإنَّ ذلك لم يكن مني إلا لهيْبته والإجلالِ له، ولَعَمْري إنَّ الملوك لأهْلٌ أَن يُهابوا ولاسيما مَنْ هو في المنزلة التي جلَّ فيها الملكُ عن منازلِ الملوكِ قبله، وقد قالت العلماءُ: الزَم السكوتَ فإن فيه السلامةَ، وتجنَّب الكلامَ الفارغَ فإنَّ عاقبتَه الندامةُ، وحكيَ أنَّ أربعةً من العلماءِ ضمَّهمْ مجلسُ مَلكٍ فقال لهم: ليَتكلَّمْ كلٌّ منكم بكلامٍ يكونُ أصلاً للأدب.

فقال أحدُهم: أفضلُ خَلةِ(١) العلماءِ السكوتُ.

وقال الثاني: إن من أنفعِ الأشياء للإنسانِ أن يعرفَ قدَرَ منزلتِه من عقله.

وقال الثالثُ: أنفعُ الأشياء للإنسانِ ألَّا يتكلَم بما لا يَعْنيهِ.

وقال الرابع: أَرْوَحُ الأمورِ للإنسان التَّسْلِيمُ للمقادير.

واجتمعَ في بعض الأزمانِ مُلوكُ الأقاليم من الصِّينِ والهنْدِ وفارس والرُّوم وقالوا: ينبغي أن يتكلَّمَ كلٌّ منَّا بكلمةٍ تُدَوَّن عنه على غابرِ(٢) الدَّهرِ. قال ملِكُ الصِّين: أنا على ما لم أقلْ أَقْدَرُ مني على ردِّ ما قلتُ. قال ملكُ الهندِ: عَجِبْتُ لمَنْ يتكلمُ بالكملةِ فإنْ كانتْ له لمْ تَنْفَعْه وإن كانتْ عليه أَوْبَقَتْهُ(٣). قال ملكُ فارسَ: أنا إذا تكلَّمْتُ بالكلمةِ ملَكَتني وإذا لم أَتكلَّمْ بها مَلكْتُها. قال ملكُ الرُّوم: ما ندِمْتُ على ما لم أتكلَّمْ به قَطُّ ولقد نَدمتُ على ما تكلَّمتُ بهِ كثيراً. والسكوتُ عند الملوكِ أحسنُ من الهذَرِ(٤) الذي

---

(١) الخَلة: الخصلة.

(٢) غابر: ماضي.

(٣) أوبقته: أهلكته.

(٤) الهذر: الهذيان.

لا يُرْجَعُ منه إلى نَفْعٍ، وأفضلُ ما استظَلّ بهِ الإنسانُ لِسانُهُ، غير أنّ الملك أطالَ الله مُدّته لمَّا فَسَحَ لي في الكلامِ وأوسَعَ لي فيهِ كانَ أوْلَى ما أبْدَأُ به من الأُمور التي هيَ غَرَضي أن تكون ثَمرَةُ ذلكَ لهُ دوني وأنْ أختصَّهُ بالفائدَةِ قَبلي، على أنَّ العُقَبى هي ما أقصِدُ في كلامي لهُ، وإنما نَفْعُهُ وشرَفُهُ راجعٌ إليهِ وأكونُ أنا قد قضيْتُ فرضاً وجبَ عليَّ فأقولُ:

«أيها الملكُ إنَّكَ في مَنازلِ آبائكَ وأجدَادِكَ من الجَبابرةِ الذين أسَّسوا المُلْكَ قبلَكَ وشيَّدوه دونكَ وبنَوْا القِلاعَ والحصونَ ومهَّدُوا البلادَ وقادُوا الجيوشَ واستجاشُوا[١] العُدَّةَ وطالتْ لهمُ المدَّةَ، واسكثروا من السلاحِ والكُرَاعِ[٢]، وعاشوا الدُّهورَ، في الغِبطةِ والسرور، فلم يمنَعْهُمْ ذلك من اكتسابِ جميلِ الذكرِ، ولا قَطَعَهم عن اغْتنامِ الشُّكرِ، واستعمالِ الإحْسان إلى من خُوِّلوهُ والرِّفْقِ بِمَن وُلُّوهُ وحُسْنِ السيرَةِ فيما تقلَّدوه، مع عِظَم ما كانوا فيه من غِرَّةِ المُلْك، وسكْرَةِ الاقتدارِ، وإنك أيُّها الملكُ السعيدُ جَدُّهُ الطالعُ كوكبُ سعدِه قد ورِثْتَ أرْضَهم وديارَهم وأموالَهم ومنازلَهمْ التي كانتْ عُدَّتَهم فأقَمحتَ فيما خُوِّلْتَ من المُلْكِ ووَرِثتَ من الأموالِ والجنودِ فلم تَقُمْ في ذلكَ بحقّ ما يجبُ عليكَ بلْ طَغَيتَ وبَغَيتَ وعتَوْتَ وعلوْت على الرَّعِيَّةِ أسأتَ السيرَةَ وعظُمَتْ منكَ البليَّةُ وكانَ الأوْلَى والأشبَهَ[٣] بكَ أنْ تسلُكَ سبيلَ أسلافِكَ وتتَّبعَ آثارَ الملوكِ قبْلَك وتَقفُوَ[٤] محاسنَ ما أبْقَوْهُ لكَ وتُقْلعَ ما عارُهُ لازمٌ لك وشَيْنُه واقعٌ بك، وتُحْسِنَ النظرَ برَعِيَّتِكَ وتَسُنَّ لهم سُنَنَ الخيرِ الذي يبقى بعدَكَ ذكرهُ ويُعْقِبُكَ[٥] الجميلَ فخرهُ، ويكونُ ذلكَ

---

(١) استجاشوا: طلبوا.

(٢) الكُرَاع اسم يجمع الخيل.

(٣) أشبه الولد أباه: شاركه في إحدى صفاته.

(٤) تقفو: تتبع.

(٥) يعقبك: يورثك.

أبقى على السلامةِ، وأدْوَم على الاستقامةِ، فإن الجاهلَ المغترَّ مَنِ استعملَ في أمورِهِ البطَرَ والأُمْنيَّةَ، والحازمَ اللَّبيبَ مَنْ ساسَ المُلْكَ بالمدَارَاةِ والرِّفْق، فانظرْ أيها الملِكُ فيما ألْقَيْتُ إليكَ، ولا يَثْقُلَنّ ذلك عليكَ، فلم أتكلمْ بهذا ابْتغاء غرَضٍ تجازيني به ولا الْتماسَ معروفٍ تسوقُه إليّ ولكنْ أتيتُكَ ناصحاً مُشْفِقاً عليك».

[الملك دبشليم يسخط على الفيلسوف بيدبا ويسجنه]

فلما فرَغَ بيدبا من مقالته وقضى مُناصحتَه أوْغَرَ صدْرَ[١] الملكِ فأغلظَ لَهُ في الجَوَاب استِصْغاراً لأمرِهِ، وقال: لقد تكَلَّمْتَ بكلامٍ ما كِنتُ أظُنُّ أنّ أحداً من أهلِ مملكتي يستقبلُني بمثله ولا يُقدمُ على ما أُقدمتَ عليه، فكيفَ بكَ معَ صِغرِ شأنِكَ وضُعْفِ مُنَّتِكَ[٢] وعجْزِ قُوّتكَ، ولقد زادَ عجبي من إقدامِكَ عليّ وتَسلُّطَكَ بلسانِكَ فيما جاوزْتَ فيه حدَّكَ، وما أجدُ شيئاً في تأديبِ غيركَ أبلغَ من التنكيل بك فذلكَ عبرةٌ وموعظةٌ لِمَنْ عساهُ أن يبلُغَ ويرومَ ما رُمتَ أنتَ من الملوكِ إذا أوسَعَوا لهم في مجالِسهمْ.

ثمّ أمرَ به أن يُقْتَلَ ويُصلَبَ، فلما مضَوْا به فكَر فيما أمرَ بِهِ فأحجمَ[٣] عنه ثم أمر بحبسه وتقْييده، فلما حُبِسَ أنفذَ الملكُ في طلبِ تلاميذه ومن كان يجتمعُ إليه فهرَبوا في البلاد واعتصَموا بجزائرِ البِحارِ، فمكثَ بيدبا في محبِسهِ أيّاماً لا يَسألُ الملكُ عنه ولا يَلتفتُ إليْه ولا يجسُر أحدٌ أن يذكرَه عندَه حتى إذا كان ليلةٌ من اللَّيالي سَهِدَ[٤] الملك سُهْداً شديداً وطالَ سُهْدُه فمَدَّ إلى الفَلَك بصرَهُ وتفكَّرَ في تَفَلُّكِ[٥] الفَلَكِ وحركاتِ الكواكبِ فأغرقَ

(١) أوغر صدره: ملأه غيظاً.

(٢) المُنَّة: القُوَّة.

(٣) أحجم: تأخر.

(٤) سهد: أرِقَ.

(٥) تفلُّك: استدارة.

الفِكرَ فيه(١) فسلَكَ به إلى استنباط شيءٍ عرَض له منْ أمورِ الفلك والمسألةِ عنه، فذكرَ عند ذلك بيدبا وتفكَّرَ فيما كلّمَه فيه فأرْعَوَى(٢) لذلك وقال في نفسه: لقد أسأتُ فيما صنعْتُ بهذا الفيلسوفِ وضيَّعْتُ واجبَ حقهِ وحملني على ذلكَ سُرعةُ الغضبِ، وقد قالتِ العلماءُ أربعةٌ لا ينبغي أنْ تكونَ في الملوكِ: الغضبُ فإنه أجدرُ الأشياءِ بصاحبهِ مقتاً(٣)، والبُخلُ فإنّ صاحبَهُ ليس بمعذورٍ مع ذاتِ يدِه(٤)، والكذبُ فإنه ليسَ لأحدٍ أن يُجاوِرَه، والعُنْفُ في المجاورةِ، فإنّ السَّفَهَ ليس من شأنها. وقد أتَى إليَّ رجلٌ نصِحٌ لي ولم يكن مُبلّغاً(٥) فَعاملْتُهُ بضدٍّ ما يستحقُّ وكافأْتُه بخلافِ ما يستوْجبُ، وما كانَ هذا جزاءَه مني بل كانَ الواجبُ أنْ أسمعَ كلامَه وأنْقادَ لِما يُشيرُ به.

ثمّ أنفذَ في ساعتِه من يأتيه به.

فلما مَثَلَ بين يديهِ قال له: يا بيدبا ألستَ الذي قصَدْتَ إلى تقصيرِ همتي وعجَّزْتَ رأيي في سيرتي بما تكلمتَ به آنفاً؟ قال بيدبا: أيها الملكُ الناصحُ الشفيقُ الصادقُ الرفيقُ إنما نَبَّأْتُكَ بما فيه صلاحٌ لك ولرعيّتَكَ ودوامُ مُلككَ لك. قال له الملكُ: يا بيدبا أعِدْ عليَّ كلامَكَ كله ولا تَدَعْ منه حرفاً إلاَّ جئْتَ به. فجعلَ بيدبا يَنثُرُ كلامَهُ والملكُ مُصْغٍ إليه وجعلَ دَبْشَليمُ كلما سمِعَ شيئاً يَنكتُ الأرْضَ(٦) بشيءٍ كانَ في يده، ثم رفع طرْفَهُ(٧) إلى بيدَبا وأمرهَ بالجلوسِ وقال له: يا بيدبا إني قد آستعذَبْتُ كلامَكَ وحَسُنَ موْقِعُه في قلبي وأنا ناظرٌ في الذي أشَرْتَ به وعاملٌ بما أمرْتَ. ثم أمرَ بقيودِه فَحُلَّتْ

---

(١) أغرق الفكر: بالغ.

(٢) ارعوى: ارتدع.

(٣) مقتاً: بغضاً.

(٤) يعني أنه غني.

(٥) واشياً.

(٦) النكت: أن تضرب الأرض بقضيب فتؤثر فيها.

(٧) طرفه: نظره.

وألقَى عليه من لباسهِ وتلقَّاهُ بالقَبولِ، فقال بيدبا: أيُّها الملكُ إنَّ في دونِ ما كلَّمْتُكَ به نُهْيةً لمثلكَ. قال: صدَقْتَ أيها الحكيمُ الفاضلُ وقد ولَّيْتُكَ من مجلسي هذا إلى جميعِ أقاصي مملكتي. فقال له: أيها الملكُ أعفِني من هذا الأمرِ فإني غيرُ مُضطلِعٍ بتقويمهِ إلاَّ بِكَ. فأعفاهُ من ذلك فلما ٱنصرَفَ عَلِم أنَّ الذي فعَلهُ ليسَ برأيٍ فَبَعَثَ فردَّه وقال: إني فكَّرْتُ في إعفائكَ ممّا عَرَضْتُه عليك فوجدتُه لا يقوم إلاَّ بك ولا ينهَضُ به غيرُك ولا يَضْطلعُ به سواكَ فلا تخالفْني فيه. فأجابه بيدبا إلى ذلك..

وكان عادةُ الملوك في ذلِكَ الزّمانِ إذا ٱستوْزَروا وزيراً أن يعقِدوا على رأْسِهِ تاجاً ويُرْكبَ في أهلِ المملكةِ ويُطافَ به في المدينةِ فأمرَ الملكُ أنْ يُفعَلَ ببيدبا ذلك فوُضعَ التاجُ على رأسهِ ورَكِبَ في المدينةِ ورجَعَ فجلسَ بمجلسِ العدْلِ والإِنصافِ يأْخذُ للدَّنيِّ من الشريفِ، ويساوي بينَ القويِّ والضعيفِ، وردَّ المظالِمَ ووضَع سُننَ العدْلِ، وأكثرَ منَ العطايا والبذْلِ، واتَّصلَ الخبرُ بتلاميذِه فجاؤوا من كلّ مكانٍ فرِحينَ بما جدَّدَ الله له من جديدِ رأْيِ الملكِ فيه وشكرُوا الله تعالى على توْفيق بيدبا في إزالةِ دَبْشَليمَ عمَّا كان عليه من سوءِ السيرةِ، واتخَذُوا ذلك اليوم عيداً يُعَيّدُونَ فيه فهو إلى اليومِ عيدٌ عندَهم في بلادِ الهند.

[بيدبا يجتمع بتلاميذه]

ثم إنَّ بيدبا لما أنْ أخْلَى فكرَهُ من اشْتِغاله بدَبْشَليمَ تفرَّغَ لوضعِ كتُبِ السياسةِ ونَشِطَ[1] لها فعمِلَ كُتباً كثيرَةً فيها دقائِقِ الحِيَلِ، ومضَى الملكُ على ما رسَمَ له بيدبا منْ حُسْنِ السيرةِ والعدل في الرَّعيَّة فرَغِبَتْ إليه الملوكُ الذينَ كانوا في نواحيه وانْقادَتْ له الأمورُ على استوائها وفرِحتْ به رعيَّتُه وأهلُ مملكته، ثم إن بيدبا جمع تلاميذَه فأحسنَ صلتَهمْ ووعدهم وعْداً

(١) نشط: أسرع.

جميلاً، وقال لهمْ: لسْتُ أشُك أنه وقع في نفوسِكم وقتَ دُخولي على الملكِ أن قلتم إنَّ بيدبا قَدْ ضَاعَتْ حِكمتُه وبَطَلَتْ فِكرته إذْ عزَمَ على الدُّخولِ على هذا الجبَّارِ الطَّاغي، فقد علمتم نتيجةَ رأْيي وصِحَّةَ فكري وأَني لم آتِهِ جهلاً به لأني كنتُ أسمع منَ الحُكَماءِ قَبْلي تقول إنّ الملوكَ لها سكْرَةٌ كسكرَةِ الشَّراب فالملوكُ لا تَفيقُ من السكرةِ إلاَّ بمواعظِ العِلماء وآدابِ الحُكماء، والواجبُ على الملوكِ أنْ يتَّعظوا بمواعظِ العلماءِ والواجبُ على العلماء تقويمُ الملوكِ بألْسنتِها وتأديبُهُم بحكمتِها وإظهارُ الحجّةِ البيّنةِ اللاَّزمةِ لهمْ ليرْتَدِعُوا عما همْ عليه من الإعوجاجِ والخروج عن العدْلِ، فوجدْتُ ما قالت العلماءُ فرضاً واجباً على الحُكماءِ لملوكِهمْ ليُوقِظوهمْ من سِنَةِ سكرَتهمْ كالطَّبيبِ الذي يجبُ عليه في صِناعتِه حِفظُ الأجساد على صِحَّتِها أو ردُّها إلى الصِّحَّةِ.

فكرهْتُ أن يموتَ أو أنْ أموتَ وما يبقى على الأرضِ إلاَّ مَنْ يقولُ إنه كان بيدبا الفيلسوفُ في زمانِ دَبْشَليمَ الطَّاغي فلم يرُدَّه عما كان عليه، فإن قال قائلٌ إنه لم يُمكنْهُ كلامُه خوْفاً على نفسِهِ قالوا كان الهربُ منه ومنْ جِوارِهِ أولَى به، والانزعاجُ عن الوطنِ شديدٌ، فرأيتُ أنْ أجودَ بحياتي فأكونَ قدْ أتيتُ فيما بيني وبينَ الحكماءَ بَعْدِي عُذْراً، فحملْتُها على التَّغْريرِ أو الظَّفَر بما أُريدهُ وكان على ذلك ما أنتمْ معايِنوهُ، فإنه يُقال في بعض الأمثالِ إنه لمْ يبلُغْ أحدٌ مرتبةً إلاَّ بإحدَى ثلاثٍ: إمّا بمشَقَّةٍ تناله في نفسِه، وإمَّا بوضِيعَةٍ[١] في مالهِ أوْ وَكْس[٢] في دينِه، ومَنْ لم يركب الأَهْوالَ لم ينَلِ الرَّغائبَ. وإنَّ الملكَ دَبْشليمَ قد بَسَطَ[٣] لساني في أنْ أضعَ كتاباً فيه ضروبُ الحكمةِ فلْيضَعَ كلُّ واحدٍ منكم شيئاً في أيِّ فنّ شاءَ ولْيَعْرضْهُ عليَّ

(١) الوضيعة. الخسارة.
(٢) الوكس. النقصان.
(٣) بسط لساني. أي أطلقه.

لأنظُرَ مقدارَ عقلهِ وأين بلغَ منَ الحكمةِ فهمُه. قالوا: «أيها الحكيمُ الفاضلُ، واللبيبُ العاقلُ، والذي[١] وهبَ لك ما منَحَكَ من الحكمةِ والعقلِ والأدبِ والفضيلةِ ما خطَرَ هذا بقلوبِنا ساعةً قطُّ وأنتَ رئيسُنا وفاضِلُنا وبك شرَفُنا وعلى يدِكَ انْتَعشنا ولكنْ سنُجْهِدُ أنفسنا فيما أمرْتَ.

ومكثَ الملكُ على ذلك منْ حُسْنِ السيرةِ زماناً يتولَّى له ذلك بيدبا ويقومُ به.

[تكليف بيديا بوضع كتاب في الحكمة]

ثم إن الملكَ دبْشَليمَ لما استقرَّ له المُلْكَ وسقطَ عنه النظرُ في أُمورِ الأعْداء بما قد كفاهُ ذلك بيدبا صرَفَ همتَه إلى النظَرِ في الكتُبِ التي وضعَتْها فلاسفةُ الهندِ لآبائهِ وأجدَاده فوقعَ في نفْسهِ أن يكونَ له أيضاً كتابٌ مشروحٌ يُنسَبُ إليه وتُذْكرُ فيه أيَّامُه كما ذُكِرَ آباؤهُ وأجْدادُهُ من قبله، فلما عزَم على ذلك علمَ أنه لا يقومُ ذلك إلاَّ بيدبا فدَعاهُ وخلاَ به، وقال له: يا بيدبا إنك حكيمُ الهند وفيلسوفُها، وإني فكَّرْتُ ونظرْتُ في خزائنِ الحكمةِ التي كانتْ للملوك قبْلي فلم أرَ فيهمْ أحداً إلاَّ وضعَ كتاباً تُذْكَرُ فيه أيَّامُه وسيرتُه ويُنبىءُ عنْ أدبِهِ وأهل مملكته، فمنهُ ما وضعتْه الملوكُ لأنفسها وذلك لفضلِ حكمةٍ فيها، ومنه ما وضعتهُ حكماؤُها. وأخافُ أنْ يَلْحَقَني ما لحِقَ أولئك مما لا حيلةَ لي فيه ولا يوجَدُ في خزائني كتابٌ أُذْكَرُ به بَعْدِي ويُنسَبُ إليَّ كما ذُكِرَ مَنْ كانَ قبلي بكتبهمْ وقدْ أحببتُ أن تضعَ لي كتاباً بليغاً تستفرِغُ فيه عقلَكَ يكونُ ظاهرهُ سياسةً للعامَّةِ وتدْريبَها على طاعةِ الملوك، وباطنُه أخلاقَ الملوكِ وسياستَها للرَّعيَّةِ فيسقطُ بذلك عني وعنهمْ كثيرٌ مما نحتاجُ إليه في مُعاناةِ المُلْك وأريدُ أن يبقى لي هذا الكتابُ بعدي ذكْراً على غابرِ الدُّهورِ.

---

(١) الواو هنا للقسم.

فلما سمع بيدبا كلامَه خرَّ له ساجداً ورفع رأسَه وقال: أيها الملكُ السَّعيدُ جَدُّهُ، علاَ نَجْمُكَ وغابَ نحسُك ودامتْ أيَّامُك إن الذي قدْ طُبعَ عليه الملكُ من جَوْدَةِ القريحةِ ووُفورِ الْعقلِ حرَّكَه إلى عالي الأمورِ، وسمَتْ به نفْسُه وهمَّتُه إلى أشرفِ المراتبِ منزلةً وأبعدِها غايةً، وأدامَ الله سعادةَ الملك وأعانه على ما عزمَ من ذلك وأعانني على بلوغِ مرادِه، فلْيأمُرِ الملكُ بما شاءَ منْ ذلك فإني صائرٌ إلى غرضِه مجتهدٌ فيه برأيي. قال له الملكُ: يا بيدبا لم تزَلْ موْصوفاً بحسْنِ الرَّأي وطاعةِ الملوكِ في أمورهِمْ، وقد اختبرْتُ منك ذلك واخترْتُ أن تضعَ هذا الكتابَ وتُعمِلَ فيه فكرَكَ وتُجْهِدَ فيه نفْسَك بغايةِ ما تجدُ إليْه السَّبيلَ، وليكنْ مشتملاً على الجدِّ والهزْلِ واللَّهْوِ والحكمةِ والفلسفةِ. فكفَّرَ[1] له بيدبا وسجد وقال: قدْ أجبتُ الملكَ أدامَ الله أيَّامَه إلى ما أمرني به وجعلْتُ بيني وبينه أجلاً. قال: وكمِ الأجلُ؟ قال: سنَةٌ. قال: قدْ أجَّلْتُكَ. وأمرَ له بجائزةٍ سنيَّةٍ تُعينُه على عمَلِ الكتاب فبقيَ بيدبا مفكّراً في الأخذِ فيه وفي أيِّ صورةٍ يَبْتَدِىءُ بها فيه وفي وضْعه.

[استشارة بيدبا لتلاميذه بشأن كتاب الحكمة]

ثمّ إنَّ بيدبا جمع تلاميذهُ وقال لهمْ: إنَّ الملكَ قد ندبنَي إلى أمرٍ فيه فخري وفخرُكم وفخرُ بلادِكم وقدْ جمعتُكم لهذا الأمرِ. ثمّ وصفَ لهم ما سألَ الملكُ منْ أمرِ الكتاب والغرضِ الذي قصدَ فيه فلمْ يقعْ لهم الفكرُ فيه. فلَّما لمْ يجدْ عندَهم ما يرُيدُه فكَّر بفضل حكمته أنَّ ذلك أمْرٌ إنما يَتمُّ بٱسْتِفْراغِ العقل وإعمالِ الفكر، وقال: أرى السَّفينةَ لا تجري في البحرِ إلاَّ بالملاَّحينَ لأنهمْ يُعدِّلونها، وإنما تُسْلَكُ اللجَّةُ بمُدَبِّرِها الذي تفرَّدَ بإمْرَتِها، ومتى شُحنَتْ بالرُّكابِ الكثيرينَ وكثرَ ملاَّحوها لم يُؤْمَنْ عليها من الغرقِ.

---

(١) كفَّرَ: خضع بأن يضع يده على صدره ويطأطىء رأسه ويتطامن تعظيماً له.

ولمْ يزَلْ يفكّر فيما يعْمله في بابِ الكتابِ حتى وضعه على الانفرادِ بنفسه معَ رجلٍ منْ تلاميذهِ كان يثق به فخلاَ به منْفرداً معه بعد أنْ أعدَّ شيئاً من الورقِ الذي كانتْ تكتب فيه الهند، ومن القوت ما يقومُ به وبتلميذِهِ تلكَ المدَّةَ وجلسا في مقْصورَةٍ[1] وردَّا عليهما البَابَ، ثمْ بدأ في نظمِ الكتابِ وتصنيفِهِ ولم يزلْ هو يُمْلي وتلميذُه يكتبُ ويَرْجع هو فيه حتى استقرَّ الكتابُ على غاية الإِتْقان والإِحكام، ورتَّبَ فيهِ خمسةَ عشر باباً كلُّ بابٍ منها قائمٌ بنفسهِ وفي كلّ بابٍ مسألةٌ والجوابُ عَنها ليكونَ لمنْ نظر فيهِ حظٌّ من التَّبصِرَةِ والهِدايةِ، وضمَّنَ تلك الأبوابَ كتاباً واحداً سمَّاه كتابَ «كليلةَ ودمْنَةَ»، ثمّ جعَل كلامَه على ألْسُن البهائمِ والسّباعِ والطَّيْر ليكونَ ظاهرهُ لهواً للْخواصِّ والْعوامِّ وباطِنهُ رياضةً[2] لعقول الخاصَّة، وضَمَّنَه أيضاً ما يحْتاجُ إليهِ الإنْسانُ منْ سياسةِ نفْسهِ وأهلهِ وخاصَّتِه وجَميعِ ما يحتاجُ إليهِ منْ أمْر دِينهِ ودنْياه، وآخرتهِ، وأُوْلاه، ويَحُضُّهُ على حسْن طاعتهِ للملوكِ ويجنِّبُهُ ما تكونُ مجانبته خيراً له، ثمّ جعله باطناً وظاهراً كرسْمِ سَائر الكتبِ التي برسْمِ الحكمةِ فصارَ الحيوانُ فيهِ لهواً ومَا ينْطِقُ به حِكماً وأدباً، فلما ابتدَأ بيدبا بذلِكَ جعل أوَّلَ الكتابِ وصْفَ الصَّديقِ وكيف يكونُ الصَّدِيقانِ وكيْف تُقْطع المودّةُ الثَّابتةُ بينهما بحيلةِ ذِي النميمةِ وأمرَ تلميذَهُ أنْ يكتبَ على لِسان بيدبا مثلَ ما كان الملِكُ شَرَطهُ في أنْ يجْعله لهْواً وحكمةً. فذكر بيدبا أنَّ الحكمة مَتى دَخلها كلامُ النَّقَلةِ أفْسدَها وٱسْتُجْهِلَتْ حكمتَها.

فلمْ يَزَلْ هو وتِلميذه يُعملانِ الفِكْرَ فيما سألهُ الملكُ حتى فتق[3] لهما العقْلُ أن يكونَ كلامهما على لِسانِ بَهِيمتَيْن، فوقع لهما موْضعُ اللَّهْو والهزْل بكلام البهائم وكانت الحكمةُ ما نطقا به، فأصْغتِ الحكماءُ إلى حكمهِ

(١) المقصورة: الحجرة.
(٢) رياضة: تمريناً.
(٣) فتق: شق.

وتركوا البهائمَ واللَّهْوَ وعلِموا أنها السّببَ في الذي وضع لهمْ ومالتْ إليهِ الجهّالَ عجَباً منْ محاورةِ بَهيمَتَيْنِ ولم يشكُّوا في ذلك واتخذوه لهواً وتركوا معنى الكلامِ أنْ يَفْهَمُوهُ ولم يَعلموا الغرضَ الذي وُضِعَ له، لأنَّ الفيلسوفَ إنما كان غرَضُه في البابِ الأوّلِ أنْ يُخبِرَ عنْ توَاصُلِ الإخوانِ كيْفَ تَتأكَّدُ المودَّةُ بينهمْ على التَّحفُّظِ من أهلِ السِّعَايَةِ[1] والتَّحرُّزِ ممَّنْ يُوقِعُ العَداوةَ بينَ المتحابَّيْنَ ليَجُرَّ بذلكَ نَفْعاً إلى نفْسِه، فلمْ يَزَل بَيْدَبا وتِلميذُه في المقصورةَ حتى اسْتتمَّ عملَ الكتابِ في مدّةِ سَنَةٍ.

فلما تَمَّ الحوْلُ أنفذَ إليهِ المَلِكُ أنْ قد جاءَ الوعْدُ فماذَا صنَعْتَ، فأنْفذَ إليه بيدبا إني على ما وَعَدْتُ المِلكَ فلْيأمُرْني بحمْلهِ بعدَ أن يجمع أهلَ المملكةِ لتكونَ قراءتي هذا الكتاب بحضرتهمْ. فلما رجعَ الرّسولُ إلى الملكِ سُرَّ بذلكَ ووعده يوماً يجمعُ فيه أهلَ المملكةِ، ثمّ نادَى في أقاصي بلادِ الهندِ لِيحْضرُوا قراءة الكتابِ، فلما كانَ ذلكَ اليوْمُ أمرَ الملكُ أن يُنْصَبَ لبيدبا سَريرٌ مثلَ سريرهِ وكراسِيُّ لأبناءِ الملوكِ والعلماء وأنفذَ فأحضرَه، فلما جاءه الرَّسولُ قامَ فلبِسَ الثّيابَ التي كان يلْبَسُها إذا دخلَ على الملوكِ وهي المُسوحُ السُّودُ وحَمَّلَ الكتابَ تلميذُهُ، فلما دَخلَ على الملكِ وثَبَ الخلائقُ بأجمعهمْ وقامَ المِلكُ شاكراً، فلما قرُبَ من الملكِ كفَّرَ له وسجَد ولم يرفعْ رأسَه، فقال له الملكُ: يا بيدبا ارفَعْ رأسَكَ فإنَّ هذا يومُ هناءٍ وفرَحٍ وسرورٍ. . . وأمَرَه الملكُ أنْ يجلِسَ فحين جلس لِقراءةِ الكتابِ سأله الملكُ عنْ معنى كلّ بابٍ من أبوابِ الكتابِ وإلى أيِّ شيءٍ قصدَ فيه فأخبره بغرضهِ فيه وفي كلّ بابٍ، فازدادَ الملكُ منه تعجُّباً وسروراً فقال له: يا بيدبا ما عدَوْتَ[2] الذي في نفسي وهذا الذي كنتُ أطلُبُ فاطلُبْ ما شئتَ وتَحكَّمْ. . . فدعا له بيدبا بالسَّعادةِ وطوله الجَدِّ[3] وقال: أيها الملكُ أمّا

---

(١) السعاية: الوشاية.
(٢) عدوت: تجاوزت الحَدّ.
(٣) الجَدُّ: الحظ.

obeikandi.com

المالُ فلا حاجةَ لي فيه وأمّا الكُسْوَةُ فلا أختارُ على لِباسِي هذا شيئاً ولستُ أُخْلي الملكَ من حاجةٍ(١) قال الملكُ: يا بيدبا ما حاجتُكَ؟ فكلُّ حاجةٍ لك مَقْضيةٌ.

قال: يأمر الملكُ أنْ يُدَوَّن كتابي هذا كما دَوَّنَ آباؤهُ وأجدادُه كتبَهمْ ويأمرُ بالمحافظةِ عليه فإني أخافُ أنْ يخرُجَ منْ بلادِ الهنْدِ فيتناولَهُ أهلُ فارسَ إذا عَلِموا بهِ، فالملكُ يأمرُ ألاَّ يخرُجَ من بيتِ الحكمةِ. ثمّ دعا الملكُ بتلاميذِهِ وأحسنَ لهمُ الجوائزَ.

ثمّ إنه لمَّا مَلَكَ كِسْرَى أنو شِرْوانَ وكان مستأثراً بالكتبِ والْعلم والأدبِ والنظَرِ في أخْبارِ الأوائلِ وقعَ إليه(٢) خبرُ الكتابِ فلمْ يَقَرَّ قرارهُ حتى بعث بَرْزَوَيْهِ الطبيبَ وتلطَّفَ حتى أخرجهُ من بلادِ الهندِ فأقرَّه في خزائنِ فارس.

قرار إرسال برزويه إلى الهند للحصول على الكتاب

الحمدُ لله الذي بيدِه مفاتيحُ غَيْبهِ، وإليه مُنتَهى كلّ علمٍ وغايةٍ، الدالِّ على الخيْرِ المسبِّبِ كلَّ فضيلةٍ، ألْهَمَ عبادَه كلَّ ما يُقرّبُهمْ إليه من نوافلِ(٣) الخيراتِ، ونَوامِي البركاتِ، لما أمرَ الله تعالى عبادَه منَ العلمِ والحكمةِ إذْ أمرَهمْ بالشُّكْرِ له ليستوجِبوا بذلك المَزيدَ منه ويُسارِعُوا فيما يُرْضيهِ عنهم تبارك الله ربُّ العالمينَ.

وقد جعلَ الله لكلّ مُسَبَّبٍ عِلَّةً ولكلِّ عِلَّةٍ مُجْرىً يُجريها الله تعالى به على يدِ عبدٍ من عبيدِهِ ويُقدِّرُها له على أيّامِ دولته وأيّام عُمرهِ، وذلك أنّ ما

(١) أخلى: أعفى.
(٢) وقع إليه: أي بلغه.
(٣) النافلة: : عطية التطوع. ونوامي: جمع نامية.

كانَ من علم انْتِساخِ هذا الكتاب ونقْلهِ من أرضِ الهندِ إلى مملكةِ فارسَ إلهامٌ ألهمَهُ الله كِسرى أنوشِرْوانَ للبَعْث في نقلهِ ونَسخه، لأنه كان أكبرَ ملوكِ الفُرْس، وأكثرَهمْ حكمةً وأسدَّهم رأياً وأرشدَهمْ تدبيراً، وأحبَّهمْ للعلومِ وأبحثَهمْ عن مَكامِنِ[١] العلمِ والأدَب، وأحرصَهم على الخيرِ وتَقَرُّبِهِ إلى الله تعالى وإلى اقتناءِ ما يَزينُه بزينةِ الحكمةِ من طالبي الأدبِ والعلمِ في معرفةِ الخير والشرِّ والنفْعِ والضَّرِّ والصَّديقِ والعدوِّ، ولم يكنْ يعرفُ ذلكَ إلاَّ بنورِ الله تعالى في سياستهِ عبيدَه وبلادَه لإقامةِ رعيتِه وأُمورِه، وهو المَلِكُ المعظَّمَ في قومهِ، كسرَى المتزيّنُ بزينةِ البَهاءِ، الفاضلُ الماجدُ الرّشيدُ السعيدُ، الذي لم يَعْدِلْهُ أحدٌ ممنْ مضَى قبلهُ من مُلوك الفُرْسِ، الناقدُ البصيرُ الكاملُ الأدَبِ المُعينَةُ له نفسُه على التماسِ فروعِ الحكَمِ، المستعينُ بنورِ العقلِ وجَوْدَةِ[٢] الفِكْرِ، الذي اختصَّهُ الله تعالى بهذهِ الخصالِ المحمودَةِ، وزيَّنَهُ بزينةِ الكرامةِ وتوَّجَهُ بهذه النِّعمةِ السابغةِ[٣]، حتى أذْعنَتْ له الرعيَّةُ، وخضَعَتْ لِسُلطانِهِ البريَّةُ، وصفَتْ له الدُّنْيَا ودَانَتْ له البلادُ وانْقادتْ له الملوكُ وركَنتْ إلى طاعتهِ وخِدْمتِه ومُناصَحتِه، وذلك مِنْحةٌ من الخالقِ جلَّ وعلاَ قَسَمَها لهُ في دَوْلتِه، وجَمَّلهُ بها في أقطاره مملكته.

فبينما هو ذاتَ يومٍ في عُنْفُوَانِ دوْلتِه وشُمُوخِها[٤] وعزَّةِ مملكتهِ وقَعَسِها[٥] إذْ أخبرَهْ بعضُ جلسائهِ أنَّ عندَ بعضِ مُلوكِ الهندِ في خزائنه كتاباً من تأليفِ الحكماء وتصانيفِ العلماءِ واستنباطِ الفُضلاءِ، وقدْ فُصّلَتْ له غرائِبُ من عجائبه الموضوعةِ على أفواهِ البهائِمِ والطَّيْرِ والوحشِ والهوامِّ[٦]

---

(١) المكامن جمع مكمن: المخابئ.
(٢) جَوْدَة من جاد الشيء: صار جيداً.
(٣) السابغة: المتسعة الشاملة.
(٤) عنفوان الشيء: أوله. والشموخ: السمو.
(٥) القعس: العزة.
(٦) الهوام: الحشرات.

وخَشَاشِ(١) الأرْضِ مما تحتاجُ إليهِ فُضلاءُ الملوك لسياسةِ رعيَّتِها ونظامِ أمورِ ممالِكِها وتدْبيرِها، فدَعتْه الحاجةُ إلى اقْتنائه ونسخه.

فلما تمّ عزْمُه وانتظمَ سألَ وُزَرَاءَهُ أن يتقدّموا ويجتهدوا في تَطَلُّب رجُلٍ كاملٍ عالمٍ أديبٍ، قد جمعَ الفضائلَ بحذافيرِها ونُسبَ إلى الكمالِ من أهلِ الصِنّفيْنِ المذكوريْنَ، إمَّا كاتباً نحريراً(٢) أو طبيباً فيلسوفاً ماهراً قد أدَّبَتْهُ التَّجاربُ عارِفاً بلسان الفارسيَّةِ خُبيراً باللغةِ الهِنْديَّةِ يكتُبُ بهما جميعاً حريصاً على العلمِ مجتهداً في الأدبِ مواظِباً على الطِّبِّ أو الفلسفةِ فيأتوهُ به.

فخرجَ أهلُ مشورَتِهِ ووُزَراؤهُ مُسْرِعينَ فبحثُوا عمَّنْ هذهِ صفتُه فوجدُوهُ وظَفَرُوا به فإذا هو شابٌّ جميلُ الوجْهِ كاملُ العقلِ والأدبِ ذو حَسَبٍ وصِناعَةٍ شَريفَةٍ يُعْرَفُ بها وهي الطِّبُّ، وكانَ ماهراً بالفارسيَّةِ والهندية وهو بَرْزَوَيْهِ بنُ أزْهَرَ الفيلسوفُ، وكان من فُضلاءِ أطِبَّاءِ فارسَ، فأُحْضِرَ بين يَدَي الملكِ كسرَى فخرَّ ساجداً وعَفَّرَ(٣) وجهَهُ طائعاً للملكِ.

فقال له الملكُ: إني قد اخترتُكَ لِمَا بلَغني من فضلكَ وعلمِكَ وعقلكَ وحِرصِكَ على طلبِ العلمِ حيثُ كان. وقد بلَغني عن كتابٍ بالهند مخزونٍ في خزائنهمْ، وقصَّ عليه قِصتَهُ وما بلَغهُ عنهُ، وقالَ لَهُ: تجهَّزْ فإني مُرَحِّلُكَ إلى أرض الهند، فتَلطَّفْ في ذلك بعَقْلِكَ وحُسْنِ أدبِكَ ونافذِ رأيِكَ لاستخراجِ هذا الكتابِ من خزائنهم ومن قِبلِ(٤) علمائهم وحكمائِهمْ تامًّا كاملاً مكتوباً بالفارسيَّةِ فتَسْتفيدُه أنتَ وتُفيدُنا إيَّاهُ، وما قَدَرْت عليه من كُتبِ الهند ممَّا ليسَ في خزائننا منهُ شيءٌ فاحْمِلْهُ معكَ وقد أمرْنا أن يُطْلَقَ لكَ من

(١) خَشاش الأرض: الواحدة خشاشة وهي الحشرة.
(٢) النِحرير: العالم الحاذق.
(٣) عفر وجهه: مرغه.
(٤) قِبَلَ: جهة.

obeikandl.com

أموالِنا ما تختارُ وتحتاجُ إليه، فإذا نَفدَ ما تَسْتَصْحِبُه فاكتُبْ إلينا نُمِدَّكَ بالمال وإن كَثُرَتْ فيه النَّفقةُ فإنَّ جميعَ ما في خزائننا مبذولٌ لكَ في طلب العلومِ وهذا الكتابِ، فطِبْ نَفْساً وقَرَّ عَيْناً وعجِّلْ في ذلك ولا تُقَصِّرْ في طلَبِ العلومِ واعمَلْ على مَسيرِكَ إنْ شاءَ الله تعالى.

قال بَرْزَوَيْهِ: أيُّها الملكُ عِشْتَ دَهْراً طويلاً سعيداً ومُلِّكْتَ الأقاليمَ السبعةَ في خَفْضٍ وَدَعَةٍ[١] مُؤيَّداً منصوراً، إنما أنا عبْدٌ مِنْ عبيدِكَ وسَهْمٌ من سِهامِكَ فَلْيَرْمِ بيَ الملكُ حيثُ شاءَ من الأرضِ، من بعدِ أنْ يأذَنَ الملكُ أدامَ أيامَهُ في غِبطةٍ وسرورٍ أن يعقِدَ لي مجلساً قبلَ سفري يحضرُه الخواصُّ ليعلَمَ أهلُ الطاعةِ والمَمْلكةِ ما اسْتخصَّني به الملكُ ورآني أهلاً له ونوَّهَ باسمي[٢] فليفعلْ ذلكَ مُنْعماً على العبدِ الطائعِ. فقال الملكُ: يا بَرْزَوَيْهِ قد رأيْتُكَ لذلك أهلاً وأجبتُكَ إلى ما طلبتَ، وأذِنْتُ لكَ فيما سألْتَ، فافعَلْ من ذلكَ حسَبَ ما تراهُ موافِقاً لكَ مُنوِّهاً باسمِكَ.

ثمَّ خرجَ برزويْهِ من بين يدَيِ الملكِ فرحاً مسروراً وأعدَّ له الملكُ يوماً أمرَ أنْ يُجْمَعَ له فيه أهلُ مملكتِهِ وخواصُّ أمراءِ دَوْلتِهِ، ثم أمرَ أن يُنْصَبَ له مِنبرٌ فنُصِبَ ورَقِيَ عليه بَرْزَوَيْهِ ثمَّ قالَ:

«أمَّا بعدُ فإنَّ الله تباركَ وتعالى خلقَ الخلْقَ برَحْمَتهِ، ومَنَّ على عبادِه بفَضْلهِ وكرمِه، ورزَقَهمْ من العقلِ ما يَقْدِرُونَ به على إصلاحِ مَعايشِهِمْ في الدُّنْيا ويُدْرِكونَ به اسْتنْقاذَ أرواحِهِمْ منَ العذابِ في الآخرَةِ، وأفضلُ ما رزَقَهمُ الله تعالى ومَنَّ به عليهم العقلُ الذي هوَ الدِّعامةُ لجميعِ الأشياءِ، والذي لا يَقْدِرُ أحدٌ في الدُّنيا على إصلاحِ معيشتِهِ ولا إحرَازِ نَفْعٍ ولا دَفْعِ ضرَرٍ إلاَّ بفيْضهِ من الخالقِ المُبدِعِ الواحدِ الأحَدِ، وكذلكَ طالبُ الآخرَةِ

(١) الدَّعَةُ: سعة العيش.
(٢) نوه باسمي: أي رفع ذكري.

obeikandi.com

الزَّاهدُ المجتهدُ في العملِ المُنْجي به نفْسَه من عَمَايةِ[١] الضلالة لا يقدِرُ على إتمام عمله وإكمالِه، ولا يَتِمُّ ذلكَ إلاَّ بالعقْلِ الذي هوَ السَّببُ الموَصِّلُ إلى كلِّ خيْرٍ والمِفْتاحُ لكلِّ سعادةٍ والمُبلِّغُ إلى دارِ الخلودِ، فليسَ لأحدٍ عنهُ غِنًى ولا بغيرهِ اكْتفاءٌ، والعقلُ غريزيٌّ[٢] مَطْبوعٌ ويتزايَدُ بالتَّجَارِبِ والآداب، وغريزَتُه مكنونَةٌ في الإنْسانِ كامنةٌ فيه كُمُونَ النَّار في الحجرِ فإن النارَ طبيعتُها فيه كامنةٌ لا تَظْهَرُ ولا يُرَى ضوْؤُها حتى يقدَحها قادحٌ من غيرها، فإذا قدَحَها ظهرَتْ طبيعتها بضوْئِها وحريقِها.

وكذلك العقْلُ كامنٌ في الإنْسانِ لا يَظْهَرُ حتى يُظْهرَه الأدبْ وتَعْضُدَهُ التجاربُ[٣] فإذا اسْتحكَم كانَ أوْلَى بالتَّجارِبِ لأَنَّه هو المقَوّي لكلِّ فضيلةٍ والمُعينُ على دفْعِ كلِّ رذيلةٍ فلا شيءَ أفضلُ من العقْلِ إذا مَنَّ الله تعالى على عبْدِه به وأعانَه على نفسِه بالمواظبَةِ على طُرُقِ الأدَبِ والعلمِ والحِرْصِ على ذلك، ومَنْ رُزِقَ العَقْلَ ومُنَّ به عليْه وأُعينَ على صِدْقه قريحتِه بالأدَبِ حَرَصَ على طلَبِ سَعْد جَدّه[٤] وأدرَكَ في الدُّنْيا أملَهُ وحازَ في الآخرَةِ ثوابَ الصَّالحينَ، فالعقْلُ هو المقوّي لِلمَلِكِ على مُلكِه فإنَّ السُّوقَةَ[٥] والعوَامَّ لا يَصلُحونَ إلاّ بإضافة يَنبوعِ العدلِ الفائض عنِ العقلِ لأنهُ سِياجُ الدولةِ.

وقد رزقَ الله مِلِكَنا السعيدَ كسرى أنوشرْوانَ مِنَ العقلِ أفضلَ الحظِّ وأجزلَهُ، ومن العلمِ أجملَهُ وأكملَهُ، ومن المعرفَةِ بالأمورِ أصوبها، وسدَّدهُ من الأفعالِ إلى أسدَّها، ومن البحثِ عن الأصولِ والفُروعِ إلى أنفعِها، وبلَّغهُ منْ فُنونِ اختلافِ العلمِ وبُلوغِ منزلةِ الفلسَفَةِ ما لم يبلُغْهُ مَلِكٌ قطُّ من

---

(١) العَمَاية: الغَوَاية.

(٢) الغريزة: الطبيعة.

(٣) تعضده: تشد أزره.

(٤) الجد: الحظ.

(٥) السُّوقَةُ: الرعية وعند العرب خلاف الملك.

الملوكِ قبلَهُ، وكان هو القابلَ لذلك بجَوْدَةِ المادَّة القابلةِ لانطباعِ الصُّوَرِ، فبلغَ بذلك الرُّتبةَ القُصوى[١] في الفضلِ على مَنْ مضى منَ الملوكِ قبلَهُ، حتى كان فيما طلبَ وبحثَ عنه وسمَتْ إليه نفسَهُ من العلمِ أن بلغَهُ عن كتابٍ بالهندِ من كُتبِ فلاسفتِها وعُلمائها مخْزونٍ عندَ مُلوكِهم عَلِمَ أنَّهُ أصلُ كلِّ أدبٍ، ورأسُ كلِّ عِلْمٍ والدليلُ على كلِّ منفعةٍ ومِفْتاحُ عمَلِ الآخرةِ وعِلْمِها ومعرفةِ النَّجاةِ من أهوالِها والمُقوّي على جميعِ الأمورِ والمعينُ على ما يَحْتاجُ إليهِ الملوكُ في تدبيرِهم لأمورِ ممالكِهمْ وآدابِ السُّوقَةِ فيما يُرْضُونَ به مُلوكَهمْ ويُصْلِحُونَ به معايِشَهمْ وهو كتابُ «**كليلةَ ودِمْنَةَ**»، فلمَّا تيقَّنَ ما بلغَهُ عنْ ذلك الكتابِ وكشَفَ عمَّا فيه منَ المنافعِ منْ تقْويةِ العقلِ والأدَبِ رآني أهلاً لذلكَ وندَبني إلى اسْتخراجِهِ واللهُ الموفِّقُ والسلامُ».

[تحديد موعد سَفر برزويه إلى الهند]

فعندَ ذلكَ ظَهرَ للملِكِ علمُه ونجابتُه وشَهامتُه[٢] فَسُرَّ بذلكَ سرُوراً شديداً، ثمَّ أمرَ الملكُ عندَ ذلكَ بإحضارِ المُنَجِّمينَ وأنْ يتخيَّرُوا له يوْماً سعيداً وطالعاً صالحاً وساعةً مُباركةً ليتوجَّهَ فيها فاخْتارُوا له يوْماً يَسيرُ فيهِ وساعةً صالحةً يخرُجُ فيها، فَسارَ بَرْزَوَيْهِ بطالعِ سَعْدٍ وحمَلَ معهُ منَ المَالِ عِشرينَ جِراباً كلُّ جِرَابٍ فيه عشَرةُ آلافِ دينَارٍ، وتوَجَّهَ جادًّا في طلبِ حاجَتِه نهاراً وليْلاً حتى قَدِمَ بلادَ الهنْدِ، فجعلَ يَطُوفُ بِبابِ الملكِ ومجالِسِ السُّوقةِ، ويُجالسُ الحكماءَ ويَسألُ عنْ خواصِّ المَلِكِ والأشرافِ منْ جُلسائهِ والعلماءِ والفلاسَفةِ، وجعلَ يَغْشَاهمْ[٣] في مَجالسهِمْ وَيتلقَّاهمْ بالتَّحيةِ والسلامِ، ويُخبرهُمْ أنهُ رجُلٌ غريبٌ قَدِمَ بلادَهم لطلَبِ العلمِ والأدبِ

(١) القصوى: العليا.
(٢) الشهامة: اسم والشهم الذكي الفؤاد.
(٣) يغشاهم: يطرقهم.

والبحْثِ عنهُ ورياضتهِ به(١) وأنهُ مُحتاجٌ إلى معُونتهمْ فيما يَطْلُبُ من ذلكَ ويسألُهمْ بَذْلَ الدعاءِ لهُ ببُلوغِ آمالهِ مع شَدَّةِ كِتمانِه لِمَا قَدِمَ بسببِه ودفْنه لِسرّه، فلم يزَلْ كذلك زَماناً طويلاً يتأدَّبُ على عُلماءِ الهنْدِ بما هوَ عالمٌ بجميعِه وكأنهُ لا يَعلُم منهُ شيئاً، وهوَ فيما بين ذلكَ يَستُرُ بُغيَتَهُ(٢) وحاجتَهُ، في أثْناءِ ذلكَ يبحثُ في مطْلوبه بِحُنْكَةٍ(٣) وسيَاسَةٍ وعِفَّةٍ ونزَاهَةٍ واتَّخذَ في تلْكَ الحالةِ لِطُولِ مُقامِه أصدقاءَ أصْفياءَ كثيرينَ كلُّهمْ منْ أهلِ الهنْدِ من الأشْرَافِ والعلماءِ والفلاسفةِ والسُّوقةِ ومِنْ أهْلِ كلِّ طَبقةٍ وصِناعةٍ.

[اتخاذ برزويه صديقاً هندياً]

وكان قد اتَّخذَ منْ بين أصْدقائه وأصْفيائه رجُلاً واحداً اصْطَفاهُ لسِرِّهِ واختَصهُ لمَشُورتِه لِمَا ظهرَ لهُ منْ فضْلهِ وأدَبه وحِكمتهِ وفَهْمه وكتمانِه لسرّ نفْسه، ولما اسْتبانَ لهُ منْ صِحَّة إخائه، وكان يُشاورُهُ في الأُمُورِ ويرْتاحُ إليه في جميع ما أهمَّهُ، إلاّ أنه كانَ يكتُمُ عنه الأمْرَ الذي قَدِمَ منْ أجله حتى يبلُوَهُ ويَختبرَهُ وينْظُرَ هلْ هو أهْلٌ أنْ يُطْلِعَهُ على سِرّه ولم يزَلْ يبحثُ عنه ويجتهدُ في أمْرهِ حتى وثِقَ به وُثوقَ الأكْفاءِ(٤) بالأكْفاءِ، وعلِمَ أنهُ محَلٌّ لكشْفَ الأسرَارَ الجَليلَةِ الخطيرة وأنهُ مأمونٌ على ما يُستودع من ذلك غيرُ خائنٍ صديقٌ صَدْقٌ ثم زادَ لهُ إلْطافاً(٥) وبه احْتفاءً وعليه حُنُوًّا إلى أنْ حضرَ اليومُ الذي رَجا فيه بُلوغَ أُمْنِيتِهِ والظَّفرَ بحاجتهِ معَ طُولِ الغَيْبةِ وعِظَمِ النفقةِ في استلْطافِ الإخوانِ ومجالستهمْ على الطَّعامِ والشَّراب.

وأنهُ لمَّا وثِقَ بصديقهِ الهنديِّ الذي تقدَّمَ ذكرُه وأنِسَ به وسَبَرَ عقلَهُ

(١) رياضته به: أي تهذيبه.
(٢) بغيته: مرامه.
(٣) الحُنْكة: إحكام التجارب.
(٤) الأكفاء: جمع كفؤ وهو المثيل.
(٥) إلطافاً: براً وإحساناً.

واطْمأنَّ إليه في سرِّه، قال لهُ يوماً وهما خاليانِ: يا أخي ما أريدُ أن أكتُمَكَ من أمري فوْقَ الذي كتَمتُكَ لأنك أهلٌ لذلك، فاعْلَمْ أني لأمر قدِمْتُ بلادَكم وهو غيرُ الذي يظهرُ مني، والعاقلُ يكتفي منَ الرَّجلِ بالعلاماتِ منْ نظرِه وإشارتهِ فيعلمُ بذلك سِرَّ نفسهِ وما يُضمِرُه قلْبُه.

فقال لهُ صديقهُ الهنديُّ: إني وإن لم أكنْ بدَأْتُك وأخبرتُكَ بما لهُ جئْتَ وإيَّاهُ تُريدُ وإليْهِ قصدْتَ وأنكَ تكتمُ ما تطلُبُه وتُظْهرُ غيرَه فما خفيَ عليَّ ذلكَ منْكَ ولا ذَهبَ عني ما كتمتَهُ، ولكنّي لرَغْبتي فيكَ وفي إخائكَ كرِهْتُ أنْ أُواجهَكَ بذلكَ وأُفاجئَكَ به لأني قد ظهرَ لي ما تكتمُ وبانَ لي ما أنْتَ لهُ مُخْفٍ، فأمَّا إذْ قدْ أظْهرْتَ ذلكَ وأفصَحْتَ به من نَفسكَ فإنّي مُخبرُكَ عنْ نفسكَ ومُظهِرٌ لكَ سريرةَ أمركَ ومُعلِمكَ عن سِرِّ حاجتكَ التي قدِمْتَ بسببها وأطلْتَ مُقامَكَ في طلبها.

وذلك أنَّك إنما وطِئتَ أرضَنا وقدمْتَ إلى بلادِنا لتسْلُبَنا كنوزَنا النَّفيسةَ فتذْهبَ بها إلى بلادِكَ وتسُرَّ بها ملِكَكَ، وكان قُدومكَ إلْينا بالمكْرِ ومُصادقتُكَ لنا بالخديعةِ، ولكني لمَّا رأيتُ صبركَ ومُواظبتكَ على طلبِ حاجتكِ والتَّحفُّظِ منْ أنْ تسْقُطَ في الكلام معَ طُول مُكثكَ عنْدَنا على كتم أمْركَ بشيءٍ يُستدلُّ به على سريرتَكَ وأُمورِكَ، ازْددْتُ رَغْبةً في إخائِكَ وثقةً بعقْلكَ وأحْببتُ مودَّتَكَ، فإني لمْ أر في الرّجال رجُلاً هو أرْصنُ[1] منْكَ عقْلاً ولا أحسنُ أدباً ولا أصْبرُ على طلب الْعلمِ ولا أكتَمُ لسرِّهِ، ولاسيَّما في بلادِ غُرْبةٍ ومملكةٍ غيرِ ممْلكتكَ وعندَ قوم لا تعرِفُ سُننهمْ ولا شيَمَهمْ[2] وإنَّ عقلَ الرَّجل ليَبينُ في خِصالٍ ثمانٍ: الأُولى منها الرِّفْقُ، والثَّانيةُ أنْ يَعْرفَ الرَّجُلُ نفْسَهُ فيحفظها، والثَّالثةُ طاعةُ الملوكِ والتَّحرّي لِمَا يُرْضِيهمْ،

---

(١) أرصن: أحكم.

(٢) السنن: الطرق. والشيم ج شيمة: أي الغريزة.

والرَّابعةُ مَعرفةُ الرَّجُلِ مَوْضعَ سرِّهِ وكيْفَ ينبغي أنْ يُطْلِعَ عليْهِ صديقَهُ، والخامِسةُ أنْ يكونَ على أبواب الملوكِ مَلِقَ[(١)] اللّسَانِ، والسَّادِسةُ أن يكونَ لِسِرّهِ ولسرِّ غيرهِ حافِظاً، والسَّابعةُ أنْ يكُونَ على لسانهِ قادِراً فَلاَ يَتكلمُ إلاَّ بما يأمنُ تَبِعَتَه ولا يُطْلِعُ على سرّه إلاَّ الثِّقاتِ، والثَّامنةُ ألَّا يتكلَّمَ في المحافِلِ بما لا يُسألُ عنهُ.

فَمنِ اجتمعَتْ فيهِ هذهِ الخصالُ كانَ هوَ الداعيَ الخيْرِ إلى نَفسهِ. وهذهِ الخِصالُ كلُّهَا قدِ اجتمعَتْ فيكَ وبانَتْ لي مِنْكَ فالله تعالى يَحْفظُكَ ويُعينُكَ على ما قدِمْتَ لهُ ويُظْفرُكَ بحاجتِكَ لأنكَ إنما صادَقْتَنِي لِتَسْلُبَنِي عِلْمي وفَخْرِي وإنك أهْلٌ لأن تُسعَفَ بحاجتكَ وتُشفَعَ[(٢)] بِطَلِبَتِكَ وتُعْطى سُؤْلَك. ولكنْ حاجتُكَ التي تطلُبُ قدْ أرهبَتْ نفْسِي وأدخلَتْ علي الفرَقَ[(٣)] والخشْيَةَ. فلَّما عرفَ بَرَزْوَيْهِ أنَّ الهنديَّ قد عرفَ أنَّ مُصادقتَهُ إنما كانتْ مكْراً وخديعةً وطلبَ حاجَتَه فلمْ يزجُرْهُ ولمْ ينتهِرْهُ بلْ رَدَّ عليهِ رَدًّا ليِّناً كردِّ الأخِ على أخيهِ بالتعطُّفِ والرِّفْقِ وثِقَ بقضاءِ حاجَتِه منهُ فقال لهُ: إني قدْ كنتُ هيَّأتُ كلاماً كثيراً وشعَّبْتُ لهُ شعُوباً وأنشأْتُ لهُ أُصُولاً وطُرُقاً فلَمَّا انتهيْتُ فيهِ إلى ما بادهْتَني بهِ من اطّلاعِكَ على أمْري والذي قدمْتَ لهُ وألقيْتَهُ إليَّ من ذاتِ نفْسكَ ورَغْبتكَ فيما ألْقيتُ من القولِ اكْتفيتُ باليسيرِ من الخطاب معكَ عمَّا كنْتُ اختلفُ فيه. إذْ عرَفْتَ الكثيرَ منْ أمُوري بالْقليل منَ الكلاَم لما قسَمَ الله لكَ من الْعقْل والأدَب. فكفَيتَنِي مؤونَة الكلام فاقتصَرْتُ به معكَ على الإيجاز. ورأيْتُ من إسْعافكَ إيَّاي بحاجتي ما دَلّني على كرمك وحُسن وفائكَ. فإنَّ الكلامَ إذا أُلقي إلى الفيْلَسُوف والسِّرَّ إذا استُودعَ اللَّبيبَ الحافِظَ فقدْ حُسّنَ وبُلغَ

(١) المَلَقُ: التودد والتلطف.

(٢) شفعت الشيء بكذا: ضممته إليه.

(٣) الفرق: الخوف.

به نهايةُ أملِ صاحبهِ كما يُحَصِّنُ الشَّيءُ النَّفيسُ في القلاعِ الحَصِينَةِ. فقالَ لهُ الهِنْدِيُّ: لا شيء أفْضلُ من المودَّةِ، ومَنْ خَلصَتْ موَدَّتُه كانَ أهْلاً أنْ يَخْلِطَهُ الرَّجُلُ بنفسهِ ولا يذْخرَ[1] عنْهُ شيْئاً ولا يكْتُمهُ سِرًّا ولا يمنَعهُ حَاجَتهُ ومُرادَهُ إنْ قدرَ على ذلِك. ورأْسُ الأدبِ حِفْظُ السرّ. فإذا كان السرُّ عِنْد الأمينِ الْكتُومِ فقدِ احْترَزَ مِن التَّضييعِ لأنهُ خَليقٌ ألَّا يتكلَّمَ بِهِ، ولا يُكْتَمُ سرٌّ بين اثْنَيْن قدْ عَلِماهُ وتفاوَضا[2] فيهِ ولا يكُونُ سِرًّا لأنَّ اللّسانيْنِ قد تكلما به، فإذا تكلمَ بالسّرّ اثْنان فلا بُدَّ منْ ثالثٍ من جهةِ الواحِدِ أوْ منْ جهةِ الآخرِ، فإذا صارَ إلى الثَّلاثةِ فقدْ شاعَ وَذاعَ حتى لا يَستطيعُ صاحبُهُ أنْ يجْحدَهُ ويكابرَ فيهِ، كالْغيْم إذا كانَ متقطّعاً في السَّماءِ فقال قائلٌ إن هذا الغيْمَ متقطعٌ لا يقْدِرُ أحدٌ على تكذيبِهِ.

[الهندي يخشى الفضيحة]

وأنا قدْ يداخِلُني منْ مَودَّتِكَ ومُخالطتِكَ مع أُنسي بقُرْبك سُرُورٌ لاَ يَعْدِلهُ[3] شيءٌ، وهذا الأمْرُ الذِي تطْلُبهُ مني أعلمُ أنهُ من الأسْرار التي لا تُكتمُ فلا بُدَّ أنْ يَفْشُوَ[4] ويظْهر حتى يتَحدَّثَ به النَّاسُ، فإذا فشا فقدْ سَعَيتُ في هَلاكِي هَلاكاً لا أقْدِرُ على الفِداءِ منهُ بالمالِ وإنْ كثُرَ، لأن مَلِكَنا فظٌّ[5] غليظٌ يُعاقِبُ على الذَّنْبِ الصَّغيرِ أشدَّ العِقابِ فكيف مِثلُ هذا الذَّنبِ العظيم وإذا حَملَتْني المودَّةُ التي بَيني وبيْنكَ فأسْعَفْتُكَ بحاجتِكَ لم يَرُدَّ عقابَهُ عني شيءٌ.

---

(١) الذخر: ما يدخر لوقت الحاجة إليه.
(٢) تفاوضا في الحديث: أخذا فيه.
(٣) لا يعدله شيء: لا يساويه.
(٤) يفشو: ينتشر.
(٥) الفظ: الغيظ القلب.

[التعاهد على كتمان الاتفاق بين بيدبا والهندي]

قال بَرزويهِ: إنَّ العُلماءَ قدْ مَدحتِ الصَّدِيقَ إذا كتمَ سِرَّ صدِيقه وأعانهُ على الفوْز، وهذا الأمرُ الذي قدِمتُ لهُ لِمثلِكَ ذخرْتُه وبك أرْجُو بُلوغَهُ وأنا واثقٌ بكرم طباعِكَ ووُفورُ عقْلِكَ فيهِ، وإن كنتَ قدْ وصلَ إليكَ مني ما وصلَ من المشقةِ فأنعِمْ بتحمُّل ذلك، واعلمْ أنَّكَ لا تخشى مني ولا تخافُ أنْ أبْديَهُ بلْ تخشى أهلَ بَلدِكَ المُطيفين بك وبالملكِ أن يَسْعَوْا بك إليهِ[١] ويُبلّغوهُ ذلك عنك، وأنا أرجُو ألَّا يَشيعَ شيءٌ منْ هذا الأمْرِ لأني أنا ظاعنٌ[٢] وأنتَ مُقيمٌ وما أقمتُ فلا ثالِثَ بيننا. فتعاهدا على هذا جميعاً.

وكان الهندِيُّ خازنَ الملكِ وبيدِه مَفاتيحُ خزائنهِ فأجابهُ إلى ذلك الكتابِ وإلى غيرِه من الكُتُبِ وسلَّمَها إليهِ، فأكبَّ[٣] على تفسيرهِ ونقلهِ من اللسان الهنديِّ إلى اللسانه الفارسيِّ، وأتعب نفسَهُ وأنصبَ بدنَهُ نهاراً وليلاً وهو مع ذلك وَجِلٌ[٤] فزِعٌ من مَلِكِ الهندِ خائفٌ على نفسهِ مِنْ أنْ يَذْكُرَ الملكُ الكتابَ في وقْتٍ ولاَ يُصادِفَهُ في خِزانتِه، فلما فرَغَ من انتِساخِ الكتابِ وغيرِهِ ممَّا أرادَ منْ سائرِ الكُتُبِ كتَبَ إلى أنوشِرْوانَ يُعْلِمُهُ بذلكَ، فلمَّا وصَلَ إليْهِ الكتابُ سُرَّ سُروراً شدِيداً ثمّ تَخوَّفَ مُعاجلةَ المقاديرِ أن تُنغِّصَ عليهِ فرحَه وتنْقُضَ سرورَه فكتبَ إلى بَرْزَوَيْهِ يأمرُه بتَعجيلِ القُدوم فسار برزويْهِ مُتوجِّهاً نحوَ كِسْرَى، فلما رأى الملكُ ما قدْ مَسَّهُ من الشُّحُوبِ والإعياءِ قال لهُ: أيُّها العبْدُ النَّاصِحُ الذي يأكلُ ثمرةَ ما قدْ غرَسَ أبشرْ وقِرَّ عَيْناً فإني مُشرِّفُكَ وبالغٌ بكَ أفضلَ دَرَجةٍ. وأمرَهُ أن يُريحَ بدَنَه سَبْعَةَ أيَّامٍ.

فلما كانَ اليومُ الثَّامنُ أمرَ الملكُ بإحضارِ أشرافِ مملكتهِ وجميعِ

---

(١) سعى بالرجل: وشى به.
(٢) ظاعن: راحل.
(٣) أكب على الشيء: لازمه.
(٤) وجل: خائف.

عَلماءِ مِصْرِهِ وشُعرائِهِ وخُطبائهِ، فلما اجتَمعوا أُحضِرَ برزَويْهِ فدخلَ عليهِ وسجدَ بينَ يَدَيِ الملكِ وجلَسَ على مَرْتبةٍ أُعِدَّتْ لهُ، ثمَّ وقَّعَ[١] الكلامَ فيما شاهدَه وراَهُ وشرحَ قِصتَهُ وحالَهُ منْ أوَّلِها إلى آخِرِها، فلمْ يبقَ أحدٌ منْ رجالِ الدَّولة وقوَّادِها وأهْلِ عُلومِها على طبَقاتِهِمْ إلاَّ تَعَجَّبَ منهُ ومنْ طُولِ طَريقهِ وحُسنِ سيرتِهِ مع صدِيقهِ وما وَفَى لهُ بهِ بلا عهْدٍ[٢] منهُ لهُ ولا مُقَدِّمَةٍ تقدَّمَتْ بينهما منْ إفْشاءِ سرِّهِ له معَ ما بينهُما مِن افتراقِ الأديان، وتَبايُنِ الأشكالِ ومُنافَرة المذهبِ، واسْتعظَموا ما أنفقَ على تحصيلِ ذلكَ وعظَّمَ برْزَوَيْهِ في أعيُنِ الحاضرينَ وكَبُرَ قدرهُ عند مَلكهِ، ثمّ إن الملكَ صرفَ مَنْ حضَرَ، وانصرَفَ برزويْهِ وعمَد الخطباءُ[٣] يصنعون مقدّماتٍ تصلُحُ لحضورِ المجلسِ وتأهَّبوا لذلكَ، وعقدَ لهمُ الملكُ مجلساً وحضرَ بَرْزَوَيْهِ وخطباءُ الدَّولةِ والوزراءُ وفُصَحاءُ المملكةِ وأُحضِرَ الكتابُ وسائرُ الكتبِ، فلما قُرئَتِ الكتُب وسمِعوا مَا فيها منَ العلومِ والحكَمِ وسائرِ الطَّرائِفِ وغرائب الآدابِ واسْتبشَرَ منْ حضَرَ وبلَغَ الملك أُمْنيَّتَهُ ومدحُوا بَرْزويْهِ وأثنُوا عليهِ وشكرُوه على ما نالَهُ من التعَبِ، فأمرَ الملك عند ذلكَ بالدُّرِّ والجوْهرِ والذَّهَبِ والفِضَّةِ وفُتِحَتْ خَزائنُ الكُسْوَةِ وخُلِعَ عليهِ وحُمّلَ بين يديه جميعُ ذلكَ، ثم إنَّ الملِكَ ألْبَسهُ التَّاجَ وأجلَسَهُ على سَريرهِ تشريفاً لهُ وزيادَةً في إجلالهِ، ولما تمَّ لبرْزَويْه ذلك خرَّ ساجداً للملكِ وقال:

«أكْرَمَ الله الملكَ بأفضلِ الكراماتِ بزيادَتهِ في دُنْياهُ وأُخراهُ، وخَلَّدَ مُلكهُ وثَبَّتَ وطَأتَهُ[٤] وشيَّدَ مَبانيَ مجْدِه إنّ الله وَلِيَّ الحمدِ قد أغْناني عن المالِ بما بَلَغتُ من الرتْبَةِ العليَّةِ السَّنيَّةِ والبُغْيَةِ والأُمْنِيَّةِ بما رزَقَني من

---

(١) وقع الكلام: أي أجراه.
(٢) عهد: معرفة.
(٣) عمد: استعد.
(٤) ثبت وطأته: أي مكن سلطته.

تشريفِ مَلكَ الملوكِ للعَبدِ الذَّليلِ، لكنْ إذا كلَّفَنِي الملكُ ذلكَ وعَلِمتُ أنه يسرُّهُ فأنا آخِذٌ ممَّا أمرَ لي به امْتثالاً لأَمْرِه وطلباً لمَرْضاتِه.. وقامَ فأخذَ منها تخْتاً(١) منْ طَرَائِفِ خُرَاسانَ منْ ملابس الملوكِ. ثمّ قال للملِكِ: إنّ الإنْسانَ إذا مَنحهُ الله تعالى عقلاً وافراً وعِلماً راجحاً وخُلُقاً رحْباً وديناً صُلْباً ونيةً سالمِةً من العاهَاتِ فلْيشكُرِ الصّانعَ الأزَليّ سرْمَداً(٢) على ما وهبَهُ من ذَلك منْ غير اسْتحقَاقٍ يستَحقُّهُ ولا مُقَدّمَةٍ سبقَتْ له، وإنَّ الإنسانَ إذا أُكْرِمَ وجبَ عليه الشُّكْرُ وإنْ كانَ قدِ استَوْجَبَهُ تَعَباً ومشَقَّةً، وأمَّا أنا فمهْمَا لِقيتُهُ منْ عَناءٍ وتَعَبٍ لِمَا أعلمُ أنَّ لكُم فيه الشَّرَفَ يا أهلَ هذا البيتِ فإني لا أزال إلى هذا اليوْمِ تابعاً رِضاكُمْ أرَى الْعسيرَ فيهَ يَسيراً والشّاقَّ هيِّناً والنَّصَبَ والأذَى سُروراً ولَذّةً، لِما أعلمُ أنَّ لكُم فيه رِضاً وعندَكُم قُرْبةً.

[برزويه يسأل كسرى أن يُخصِّص له أول أبواب الكتاب]

ولكنّي أسأَلُكَ أيُّها الملكُ حاجةً تُسْعِفُني بها وتعْطيني فيها سُؤْلي فإنَّ حاجتي يَسيرَةٌ وفي قضائِها فائدَةٌ كثيرَةٌ.

قال أنوشِرْوان: قُلْ فكلُّ حاجةٍ لكَ قِبَلَنا مَقضيَّةٌ فإنّكَ عنْدنَا عظيمٌ ولوْ طلَبتَ مُشارَكَتنا في مُلْكِنا لَفعَلْنا ولمْ نَرْدُدْ طَلِبَتَكَ فكيْفَ ما سِوى ذلكَ فقُلْ ولا تحتشِمْ(٣) فإنّ الأُمُورَ كلها مبْذُولَةٌ لكَ. قال برزويَه: أيها الملكُ لا تنْظُرْ إلى عَنائي في رِضاكَ وانكماشِي(٤) في طاعتِكَ فإنما أنا عبْدُكَ يلزمُني بذْلُ مُهجتي في رضاكَ، ولوْ لمْ تجْزني لم يكنْ ذلك عندي عظيماً ولا واجباً على الملكِ، ولكنْ لكرَمهِ وشرَفِ مَنصبهِ عمَدَ إلى مُجازاتي وخصَّني وأهلَ

---

(١) التخت: مخزن الثياب.
(٢) سرمداً: دائماً.
(٣) تحتشم: تخجل.
(٤) انكماشي: جدي وإسراعي.

بيتي بعلُوّ المرْتَبةِ ورفْعِ الدّرجةِ حتى لوْ قَدَرَ أنْ يجْمَع لنا بين شرفِ الدُّنْيا والآخرةِ لَفعَلَ فجزاهُ الله عنّا أفضلَ الجزاءِ. قال أنُوشِرْوانُ: اذْكُرْ حاجَتَكَ فعليَّ ما يَسُرُّكَ. فقال برْزوَيْهِ: حاجتي أنْ يخرُجَ أمرُ الملكِ أنْفذَهُ الله تعالى إلى الحكيمِ الفاضل الرَّفيعِ المَقامِ وزيرِهِ بُزُرْجُمَهْرَ بْنِ البَخْتَكانِ أن يَنْظِمَ أمْري في نُسخةٍ ويُبوِّبَ الكتابَ[١] ويجْعلَ تلكَ النُّسْخة باباً يذْكُرُ فيهِ أمْري ويَصفُ حالي ولا يَدَعُ من المُبالَغةِ في ذلك أقصَى ما يَقْدِرُ عليهِ، ويأمُرَهُ إذا فَرَغَ منهُ أنْ يجعلَهُ أوّلَ الأبوابِ التي تُقْرأُ قبلَ بابِ الأسَدِ والثّوْرِ، فإن الملكَ إذا فعَلَ ذلك فقدْ بَلغَ بيَ وبأهْلِي غايةَ الشّرَفِ وأعْلى المراتبِ، وأبقَى لنا ما لا يَزالُ ذِكرُهُ باقياً على الأبَدِ حيْثُمَا قُرِىءَ هذا الكتابُ.

فلما سمِعَ كِسْرَى أنُوشِرْوانُ والعُظماءُ مقالتَه وما سَمَتْ إليه نفسُه منْ محبَّةِ إبقاءِ الذكْرِ عَجِبُوا منْ أدبِهِ وحُسْنِ عقلِهِ وكِبَرِ نفسهِ واسْتَحْسَنوا طَلِبَتَهُ واختيارَه، فقالَ كسرى: حُبًّا وكرامةً يا بروزيْهِ إنك لأهْلٌ أنْ تُسْعَفَ بحاجتِكَ فما أقلَّ ما قَنِعْتَ به وأيسرَهُ عندَنا وإن كان خطرُه[٢] عندَكَ عظيماً. ثم أقْبلَ أنُوشِرْوانُ على وزيره بُزُرْجُمَهْرَ فقال له: قدْ عرَفْتَ مُناصحةَ برْزويْهِ لنا وتجشُّمَهُ[٣] المخاوِفَ والمهالِكَ فيما يُقرّبُهُ منَّا وإتْعابَه بدنَهُ فيما يَسُرُّنا وما أتي إليْنا من المعروف وما أفادَنا الله على يدِه من الحكمةِ والأدبِ الْباقي لنا فخرُه، وما عرَضْنا عليهِ منْ خزائِننا لنُجْزيَهُ على ما كانَ منهُ فلمْ تَمِلْ نفسُه إلى شيءٍ منْ ذلك، وكانتْ بُغْيتُهُ وطَلِبَتُهُ منَّا أمراً يسيراً رآهُ هو الثّوابَ منَّا لهُ والكرامةَ الجليلةَ عندهُ، فإنّي أُحِبُّ أنْ تتكلَّمَ في ذلكَ وتُسْعِفَهُ بحاجتهِ وطلِبَتِهِ واعلمْ أنَّ ذلك ممَّا يَسُرُّني، ولا تدَعْ شيئاً من الاجْتهاد والمُبالَغةِ إلاّ بَلغتَهُ وإنْ نالتْكَ فيهِ مَشَقَّةٌ وهو أنْ تكتُبَ باباً مُضارعاً[٤] لتلْكَ الأبْوابِ التي في

---

(١) بوَّبه: قسمه أبواباً.

(٢) خطره: شرفه.

(٣) تجشم: الأمر إذا تكلفه على مشقة.

(٤) مضارعاً: مشابهاً.

الكتابِ وتَذْكُرَ فيه فضْلَ برْزويهِ ونَسبهُ وحسَبهُ وصِناعتَهُ وأدبَهُ وكيْفَ كان ابتِداءُ أمْرِهِ وشأنه، وتَنْسُبَهُ إليهِ، وتذْكُرَ فيه بَعْثَتَهُ إلى بلادِ الهندِ في حاجتِنا وما أُفِدْنا منَ الحِكَم على يدِه منْ هُنالكَ وشرُفْنا به وفُضِّلْنا على غيرِنا، وكيف كانَ حالُه بعدَ قدُومه وما عرَضْنا عليهِ من الأموالِ فلمْ يَقْبلْهُ، فقلْ ما تَقْدِرُ عليه منَ التقْرِيظِ والإطْنابِ في مدْحه وبالغْ في ذلكَ أفضلَ المُبالغةِ واجتهد في ذلكَ اجتهاداً يَسُرُّ برْزوَيْه وأهل المملكةِ وإنَّهُ لأهْلٌ لذلكَ منْ قِبَلي ومنْ قِبَلِ جميعِ أهلِ الملكةِ ومنْ قِبَلِكَ أيضاً لمحبَّتك للْعلوم، واجْهَدْ أنْ يكونَ غرَضُ هذا الكِتابِ الذي يُنْسَبُ إليه أفضلَ منْ أغْراضِ تلكَ الأبوابِ عنْدَ الخاصِّ والعامِّ وأشدَّ مُشاكلةً[1] لحالِ هذا العلمِ، فإنكَ أسْعدُ النّاسِ كلهِمْ بذلكَ لانْفرادِكَ به واجْعلهُ أوَّلَ الأبْوابِ، فإذا أنتَ عمِلْتَهُ ووضَعْتَهُ بحيثُ رسَمتُ لكَ فأعْلِمْني لأجْمَعَ أهلَ المملكةِ وتقْرَأهُ عليهمْ فيَظْهَرَ فَضلُكَ واجتهادُكَ في محَبَّتِنا فيكونَ لكَ بذلكَ فخرٌ.

فلما سمِعَ بُزُرْجُمَهْرُ مقالة الملكِ خرَّ له ساجداً وقال: أدامَ الله لكَ أيُّها الملكُ البقاءَ وبلَّغكَ أفضل مَنازِلِ الصَّالحينَ في الآخرَةِ والأُولَى لقدْ شرَّفْتني بذلكَ شرَفاً باقياً إلى الأبَد.

ثمَّ خرجَ بُزُرْجَمْهَرُ منْ عندِ الملكِ فوَصفَ برْزويه منْ أوَّلِ يوْم دفعهُ أبَواهُ إلى المُؤدّبِ ومُضيَّهُ إلى بلادِ الهنْد في طلبِ الْعقاقِيرِ والأدويَةِ، وكيفَ تعلَّمَ خطوطَهم ولُغتَهمْ إلى أنْ بعثَهُ أنُوشِرْوانُ إلى الهند في طلبِ الكتابِ، ولَمْ يدَعْ منْ فضائلِ برزويهِ وحكمتهِ وخلائقهِ ومذْهَبِهِ أمْراً إلاَّ نَسَّقَهُ[2] وأتى به بأجْودِ ما يكونُ من الشَّرْحِ، ثمَّ أعْلَمَ الملكَ بِفَراغهِ منهُ فجمعَ أنوشِرْوانُ أشرافَ قوْمهِ وأهْلَ مملكتهِ وأدْخلَهم إليه وأمرَ بُزُرْجُمَهْرَ بقراءَة الكتابِ

(١) مشاكلة: مشابهة.

(٢) النسق: إيراد الكلام على نظام واحد.

وبرْزويه قائمٌ إلى جانبِ بُزُرْجُمَهْرَ، وابتدأ بوصفِ برزويه حتى انتهى إلى آخرِهِ ففرحَ الملكُ بما أتى فيه بُزُرجُمْهَرُ من الحكمة والعلْمِ ثمَّ أثْنى الملكُ وجميعُ منْ حضر على بُزُرْجُمَهْرَ وشكرُوهُ ومدحُوهُ وأمر لهُ الملكُ بمالٍ جزِيلٍ وكسْوَةٍ وحُلِيٍّ وأوَانٍ فلمْ يَقْبَلْ منْ ذلكَ شيئاً غيرَ كُسْوَةٍ كانتْ منْ ثيابِ المُلوك، ثمَّ شكَر لهُ ذلك بَرْزوَيْه وقبَّلَ رأسَه ويدَهُ وأقْبلَ على الملك وقال: أدام الله لك المُلْكَ والسَّعادة فقدْ بَلغْتَ بي وبأهْلي غايةَ الشرَفِ بما أمرْتَ بهِ بُزُرْجُمَهْرَ منْ صَنْعة الكتابِ في أمْري وإِبْقَاءِ ذِكْرِي، ثمَّ انصرَفَ الجمعُ مسرُورينَ مُبْتهجينَ وكانَ يوْماً لا مِثالَ لهُ.

obeikandl.com

obeikandl.com

[غرض الكتاب
كما حدَّده عبد الله ابن المقفع]

هذا كتابُ كليلةَ ودِمْنَةَ، وهو ممّا وضعَتْهُ عُلماءُ الهندِ من الأمثالِ والأحاديثِ التي أُلْهِمُوا أنْ يُدْخلوا فيها أبْلغَ ما وجدُوا من القوْلِ في النَّحْوِ[1] الذي أرادُوا، ولم تَزَلْ العُلماءُ منْ أهْلِ كلِّ ملَّةٍ يلْتمسُونَ أنْ يُعْقَلَ عنهم، ويحتالُون في ذلك بصُنُوفِ الحيَلِ، ويبتغُونَ إخْراجَ ما عندَهمْ منَ العِلَلِ[2] حتى كانَ منْ تلْكَ العِلَلِ وضْعُ هذا الكتابِ على أفواهِ الْبَهائم والطَّيْر فٱجتَمعَ لهمْ بذلك خِلالٌ[3]، أمَّا هم فوَجَدُوا متصرَّفاً في القوْلِ وشِعاباً يأخذُونَ فيها وأمَّا هوَ[4] فجمعَ حكمةً ولهواً فاخْتارَهُ الحُكماءُ لحكمته والسُّفهاءُ[5] لَلْهوِهِ، والمتَعلّمُ من الأَحْداثِ ناشِطٌ في حفظِ ما صارَ إليْهِ منْ أمْرٍ في صدْرِه ولا يَدْري ما هوَ بلْ عرَفَ أنهُ قد ظَفِرَ منْ ذلكَ بمكْتُوبٍ مَرْقُومٍ[6]، وكانَ كالرَّجُلِ الذي لمَّا استكملَ الرُّجوليَّةَ وجدَ أبوَيْه قدْ كَنَزا لهُ كُنوزاً واعتَقدَا له عُقَداً استغْنَى بها عن الكَدْحِ فيما يعلمهُ منْ أمرِ معيشتِهِ فأغناهُ ما أشْرَفَ[7] عليهِ منَ الحكمة عن الحاجةِ إلى غيرِها منْ وُجُوهِ الأدبِ.

---

(١) النحو: القصد.

(٢) أي يطلبون الأسباب.

(٣) جمع خَلة: الخصلة.

(٤) أي الكتاب.

(٥) السفهاء: جمع سفيه وهو الناقص العقل.

(٦) مرقوم: موشى مزين.

(٧) أشرف على الشيء. اطلع عليه.

وينبغي لمنْ قرأ هذا الكتابَ أنْ يعرِفَ الوُجُوهَ التي وُضِعَتْ لهُ وإلى أيِّ غايةٍ جرَى مُؤَلِّفُهُ فيهِ عندَ ما نَسبَهُ إلى البهائمِ وأضافَهُ إلى غير مُفْصِحٍ وغيرِ ذلكَ منَ الأوْضاعِ التي جعَلَها أمثالاً، فإنَّ قارِئَهُ متَى لمْ يفعَلْ ذلكَ لمْ يدْرِ ما أُريدَ بتلْكَ المعاني ولا أيَّ ثمرَةٍ يجتَني منها ولا أيَّ نتيجةٍ تحصُلُ لهُ منْ مُقدِّماتِ ما تضمَّنَهُ هذا الكتابُ، وإنهُ وإنْ كان غايتَهُ اسْتتمامُ قراءَتِهِ إلى آخرِهِ دُونَ معرفةِ ما يقْرَأُ منهُ لمْ يَعُدْ عليه شيءٌ يرْجِعُ إليْهِ نَفْعُهُ.

[صاحب الكنز الذي لم ينعم به]

ومَنِ استكْثَرَ منْ جَمْعِ العلومِ وقراءَةِ الكتُبِ منْ غيرِ إعمالِ الرَّوِيَّةِ[١] فيما يقْرَؤهُ كانَ خليقاً أنْ يُصيبَهُ ما أصابَ الرَّجُلَ الذي زعمَتِ العُلماءُ أنّهُ اْجْتازَ بعْضَ المَفاوِزِ[٢] فظهرَ لهُ موْضِعُ آثارِ الكُنوزِ، فجعلَ يَحْفِرُ ويطْلُبُ فوقعَ على شيءٍ منْ عينٍ[٣] ووَرِقٍ[٤] فقالَ في نفسهِ: إنْ أنا أخذْتُ في نَقْلِ هذا المال قليلاً طالَ عليَّ وقطَعني[٥] الاشْتِغالُ بنقْله وإحْرازِهِ عنِ اللّذَّةِ بما أصبْتُ منْهُ، ولكنْ سأَسْتأجِرُ أقواماً يحْمِلُونَهُ إلى مَنزِلِي وأكُونُ أنا آخرَهمْ ولا يكُونُ بقِيَ ورائي شيءٌ يَشْغَلُ فِكْري بفِعْلِهِ وأكُونُ قدِ اْسْتظهَرْتُ[٦] لِنفسي في إراحةِ بدَني عنِ الكَدِّ بيَسيرِ أُجْرةٍ أُعْطيها لهمْ ثمَّ جاءَ بالحمَّالينَ، فجعلَ يُحمِّلُ كلَّ واحدٍ منهمْ ما يَطيقُ فيَنْطلقُ به إلى منزلهِ فيفُوزُ بهِ حتى إذا لمْ يبْقَ منَ الكَنْزِ شيءٌ اْنطلقَ خلْفَهمْ إلى منزلهِ فلمْ يجدْ فيه من المَالِ شيئاً لا قليلاً

(١) الروية: الفكر والتدبر.
(٢) المفازة: الفلاة التي لا ماء فيها.
(٣) العين: الدينار من الذهب.
(٤) الوَرِق: الدراهم المضروبة من الفضة.
(٥) قطعني: منعني.
(٦) استظهرت: استعنت، ومنه الظهير: المعين.

ولا كثيراً، وإذا كلُّ واحدٍ منَ الحمَّالينَ قدْ فازَ بما حَملهُ لنفْسهِ ولم يكُنْ لهُ منْ ذلكَ إلاَّ الْعناءَ والتَّعب لأنهُ لم يُفكّرْ في آخرِ أمْرهِ.

[الجوز والصحيفة]

وكذلِكَ منْ قرأَ هذا الكتابَ ولم يَفْهَمْ ما فيهِ ولم يَعلمْ غرَضهُ ظاهراً وباطِناً لمْ يَنْتفعْ بما بَدَا لهُ منْ خَطّهِ ونقْشهِ كما لوْ أنَّ رُجلاً قُدِّمَ لهُ جَوْزٌ صحيحٌ لمْ ينتفعْ بهِ إلاَّ أنْ يكسِرَهُ ويستخرج ما فيه، وكانَ أيضاً كالرَّجُلِ الذي طلَبَ علمَ الفصيحِ منْ كلامِ النَّاس فأتى صدِيقاً لهُ من العُلماءِ لهُ علْمٌ بالفَصاحةِ فأعْلمَهُ حاجتَهُ إلى علمِ الفَصيحِ، فرسَمَ لهُ صدِيقُهُ في صَحِيفةٍ صفْرَاءَ فصيحَ الكلامَ وتَصاريفَهُ ووُجُوهَه، فانصرَفَ إلى منزِلهِ فجعلَ يُكْثِرُ قرَاءَتَها ولا يقِفُ على معانيها، ولا يهتمْ بتأويل ما فيها حتى استظهرها عليها فاعتقد أنه قد أحاط بعلم ما فيها ثم إنهُ جلسَ ذاتَ يوْم في محْفِلٍ منْ أهلِ الْعلمِ والأدَبِ، فأخَذَ في مُحاورَتِهمْ فجرتْ لهُ كلمةٌ أخطَأَ فيها فقال لهُ بعْضُ الجماعةِ: إنَّكَ قدْ أخطأتَ والوجْهُ غيرُ ما تكلَّمْتَ بهِ. فقال: كيْفَ أُخطىءُ وقدْ قرأتُ الصَّحيفةَ الصَّفْراءَ وهي في مَنزِلي. فكانت مقالتُهُ لهمْ أوْجبَ للحُجَّةِ عليهِ وزادَهُ ذلك قُرْباً منَ الجهْلِ وبُعْداً منَ الأدبِ.

[الرجل الصابر على اللص]

ثمَّ إنَّ العاقلَ إذا فَهِمَ هذا الكتابَ وبلغَ نِهايةَ عِلمهِ فيهِ ينبغي لهُ أنْ يَعمَلَ بما علمَ منهُ لينتفِعَ بهِ ويجعلَهُ مثالاً لا يَحيدُ عنهُ، فإذا لم يَفعَلْ ذلكَ كانَ مثلُهُ كالرَّجُلِ الذِي زَعموا أنَّ سارِقاً تَسوَّرَ عليهِ(١) وهو نائمٌ في مَنزلهِ فعلِمَ بهِ فقال: واللهِ لأسكُتَنَّ حتى أنظُرَ ماذا يَصنَعُ ولا أذْعَرُهُ(٢) ولا أُعْلِمُه

(١) تسور: تسلَّق.

(٢) أذعره: أفزعه.

أني قدْ عَلمْتُ بهِ، فإذا بلَغَ مُرادَهُ قمتُ إليهِ فنَغَّصْتُ ذلكَ عليهِ، ثمَّ إنهُ أمْسَكَ عنهُ وجعلَ السَّارقُ يتردَّدُ وطال تردُّدُه في جَمعهِ ما يجدُهُ فغلَبَ الرَّجلَ النعاسُ فَنامَ وفرَغَ اللّصُّ ممَّا أرادَ وأمكنَهُ الذَّهابُ واسْتيقظَ الرَّجُلُ فوجدَ اللّصَّ قدْ أخذَ المَتاعَ وفازَ بهِ، فأقْبلَ على نفسهِ يلُومُها وعرَفَ أنه لمْ ينتفعْ بعلْمهِ باللّص إذْ لمْ يَستعمِلْ في أمرِه ما يجِبُ.

وقد يُقالُ إنَّ العلمَ لا يَتمُّ إلا بالْعَملِ وإنَّ العلمَ كالشَّجرةِ والعمَلَ بهِ كالثَّمرةِ، وإنما صاحبُ العلم يقُومُ بالعَمل لِينتفعَ بهِ وإنْ لمْ يَستعمِلْ ما يَعْلمُ لا يُسَمَّى عالماً، ولوْ أنَّ رجُلاً كانَ عالماً بطرِيقٍ مَخُوفٍ ثمّ سلَكهُ على عِلمٍ بهِ سُمّيَ جاهلاً، ولَعلهُ إنْ حاسَبَ نفْسَه وجدَها قدْ رَكِبتْ أهواءً هجَمتْ بها فيما هوَ أعرَفُ بضرَرِها فيهِ وأذَاهَا منْ ذلكَ السَّالِكِ في الطَّريقِ المَخُوفِ الذي قدْ عَرَفَه، ومنْ ركِبَ هوَاهُ ورفَضَ ما ينبغي أنْ يعْمَلَ بما جرَّبَه هوَ أوْ أعلمَهُ بهِ غيرُهُ كانَ كالمَريضِ الْعالِمِ برَدِيءِ الطَّعامِ والشَّرابِ وجيِّدِهِ وخَفيفِه وثَقيلِه ثمَّ يحْملهُ الشَّرَهُ على أكْلِ ردِيئِه وترْكِ ما هوَ أقْربُ إلى النَّجاةِ والتَّخلُّصِ منْ عِلتهِ.

[مَثَلُ البصير والأعمى]

وأقلُّ النَّاسِ عُذْراً في اجتِنابِ محْمُودِ الأفْعالِ وارْتِكابِ مذْمُومِها منْ أبصَرَ ذلكَ وميَّزَهُ وعرَفَ فضْلَ بعضهِ على بعْضٍ، كما أنهُ لو أنَّ رجُلَيْنِ أحدُهُما بَصيرٌ والآخَرُ أعْمَى ساقَهُما الأجَلُ إلى حُفْرَةٍ فوَقَعا فيها كانَا إذَا صارَا جَميعاً في قَعْرِها بمنزلةٍ واحدَةٍ غيرَ أنَّ البَصيرَ أقلُّ عُذْراً عندَ النَّاسِ منَ الضَّريرِ إذْ كانتْ لهُ عَيْنانِ يُبْصِرُ بهما وذاكَ بما صارَ إليه جاهِلٌ غيرُ عارفٍ، وعلى العالِمِ أنْ يبْدَأَ بنفسهِ فيؤَدِّبَها بعلْمهِ ولا تكُونَ غايتَهُ اقتِناؤُهُ العلمَ لمُعاونَةِ غيرِهِ ونفعه به وحرمان نفسه منه ويكُونَ كالعَيْنِ الَّتي يشرَبُ النَّاسُ ماءَهَا وليسَ لها في ذلكَ شيءٌ منَ المنْفعَةِ، وكَدُودَةِ القَزِّ التي تُحْكِمُ صُنْعَهُ

ولا تَنتفعُ بهِ، فينبغي لمنْ طلَبَ العِلمَ أنْ يَبدأ بعِظَةِ نفسهِ ثمَّ عليهِ بعدَ ذلكَ أنْ يَقْبِسَهُ[١] فإنَّ خِلاَلاً[٢] ينْبغي لصاحِبِ الدُّنْيا أنْ يَقْتَنِيَها ويَقتبسَها، منها العلمُ والمالُ، ومنها اتّخاذُ المعرُوفِ وليسَ للعالِمِ أنْ يَعيبَ امْرَأً بشيءٍ فيهِ مثلهُ ويكونَ كالأعمَى الذِي يُعَيِّرُ الأعمى بعَماهُ، وينبغي لمَنْ طلَبَ أمراً أن يكونَ لهُ فيهِ غايَةٌ ونهايَةٌ يَعملُ بها ويَقفَ عندَها ولا يَتمادَى في الطَّلَبِ فإنهُ يُقالُ مَنْ سارَ إلى غيرِ غايَةٍ يُوشِكُ أنْ تنقَطعَ بهِ مَطِيَّتُهُ[٣] وأنهُ كانَ حَقيقاً ألاَّ يُعَنِّيَ نفسَهُ في طلَبِ ما لاَ حَدَّ لهُ وما لمْ يَنلْهُ أحدٌ قبلَهُ، ولا يَتأسَّفَ عليهِ ولا يكُونَ لدُنْياهُ مُؤْثِراً[٤] على آخرَتهِ فإنَّ مَنْ لمْ يَعْلَقْ قلبُهُ بالغاياتِ قَلَّتْ حسْرَتُهُ عندَ مُفارقتِها وقدْ يُقالُ في أمرَيْنِ إنَّهما يَجمُلانِ[٥] بكلِّ أحدٍ: أحدهما النُّسْكُ والآخَرُ المَالُ، وقد يُقالُ في أمريْنِ إنَّهما لا يَجْمُلاَنِ بأحدٍ: المَلِكُ أنْ يُشارَكَ في مُلكِهِ، والرَّجُلُ أنْ يُشارَكَ في زَوْجه. فالخَلتَانِ الأُولَيانِ مثلُهما مثَلُ النَّارُ التي تُحْرِقُ كلَّ حطَبٍ يُقْذفُ فيها، والخَلَّتَانِ الأُخريَانِ كالمَاءِ والبخارِ اللَّذَيْن لا يُمكنُ اجتماعُهمَا وليْسَ ينبغي لِلعاقِلِ أنْ يغْبِطَ أحداً ساقَ الله إليهِ صُنعاً وقد كانَ راجِياً منهُ غيرَ ذَلك.

[حكاية اللص والفقير]

ومنْ أمثَالِ هذا أنَّ رجُلاً كانَ بهِ فاقَةٌ وجُوعٌ وعُرْيٌ فألجأهُ ذلكَ إلى أنْ سألَ من أقاربِهِ وأصدِقائهِ فلمْ يكُنْ عند أحدٍ منهمْ فَضلٌ يعُودُ بهِ عليهِ، فَبينما هُو ذاتَ لَيْلة في منزلهِ إذْ بَصُرَ بِسارِقٍ فيه فقال والله ما في مَنزِلي شيءٌ أخافُ عليه فلْيَجهَدِ السَّارِقُ جَهْدَهُ. فبينما السَّارِقُ يجولُ إذْ وقعتْ يدُهُ على

---

(١) يقبسه: يتعلمه.

(٢) خِلالاً: جمع خَلَّة مثل الخَصْلَة.

(٣) المَطية: الدابة.

(٤) مُؤْثِراً: مفضلاً.

(٥) يجملان: يحسنان.

خابِيَةٍ فيها حِنطَةٌ فقال السَّارقُ: واللهِ ما أُحِبُّ أنْ يكُونَ عَنائي اللَّيْلَةَ باطلاً ولَعلّي لا أصِلُ إلى موْضعٍ آخَرَ ولكنْ سأحْمِلُ هذِه الحِنْطَةَ خيرٌ من الرجوع بغير شيء. ثم بسط رداءَه، ليصُبَّ الحنطة، فقالَ الرَّجلُ: يَذْهَبُ هذا بالحِنْطةِ وليسَ وَرائِي سِوَاها فيَجتمعُ عليَّ معَ العُرَي ذَهابُ ما كُنْتُ أقْتاتُ بِهِ وما تجْتمِعُ واللهِ هاتَانِ الخَلّتانِ على أحدٍ إلاَّ أهلَكَتاهُ. ثمّ صاحَ بالسَّارِقِ وأخذَ هِرَاوَةً[1] كانَتْ عندَ رأسهِ فلمْ يكُنْ لِلسَّارِقِ حِيلَةٌ إلاّ الهرَبُ منهُ وترَكَ رداءَه ونجَا بنفسهِ وغَدَا الرَّجُلُ بِهِ كاسِياً.

ولا ينبغي للْعاقِلِ أنْ يَرْكَنَ إلى مثْلِ هذا ويَدَعَ ما يجبُ عليهِ منَ الحذَرِ والعَمَلِ لصلاحِ مَعاشِه، ولا ينظُرُ إلى مَنْ تُؤَاتِيهِ[2] المقادِيرُ وتُساعدُهُ على غيرِ التماسه منهُ فإنَّ أُولئِكَ في النَّاسِ قلِيلٌ، والجُمهورُ منهمْ مَنْ أتْعَبَ نفسَهُ في الكَد والسَّعْيِ فِيما يُصْلحُ أمرَهُ ويَنالُ به ما أرادَ وينبغي أنْ يكُونَ حِرْصُه على ما طَابَ كَسْبُه وحَسُنَ نَفْعُه ولا يتعَرَّضُ لِمَا يَجلُبُ عليهِ العَناءَ فيكُونَ كالحَمامةِ التي تُفْرِخُ الفِراخَ فتُؤخذُ وتُذْبَحُ ثمّ لا يمنَعُها ذلكَ مِنَ أنْ تَعُودَ فتُفْرِخَ موضعها وتُقيمَ بمكانِها فتُؤْخَذُ الثّانيةُ من فِراخِها فتُذْبَحُ حتى تُؤْخَذ هيَ أيضاً فتُذْبَحَ.

وقد يقالُ إن الله تعالى قد جَعلَ لكلِّ شيءٍ حدًّا يُوقَفُ عليهِ، ومَنْ تجاوَزَ في الأشياءِ حدَّها أوشَكَ أنْ يَلحَقَهُ التَّقصيرُ عن بُلوغِها، ويُقالُ مَنْ كانَ سعيُهُ لآخرَتِهِ ودُنْياهُ فحيَاتُهُ لهُ وعليهِ، ومن كانَ سعيُهُ لدُنياهُ خاصَّةً فَحياتُهُ عليه ومن كان سعيه لآخرته فحياته له. ويُقالُ في ثلاثةِ أشياءَ يجِبُ على صاحِبِ الدنْيا إصلاحُها وبَذلُ جَهدِهِ فيها، مِنها أمرُ مَعيشته، ومنها ما بَينهُ وبينَ الناسِ، ومنها ما يُكْسِبُهُ الذِّكْرَ الجميلَ بعدَهُ، وقدْ قيلَ في أُمورٍ مَنْ

---

(١) الهِرَاوة: العصا الضخمة.

(٢) تؤاتيه: توافقه.

كُنَّ فيهِ لم يَسْتقِمْ لهُ عَمَلٌ، منها التَّواني[١]، ومنها تضْييعُ الفُرَصِ، ومنها التَّصدِيقُ لكلِّ مُخبِرٍ، ومنها التكذيب لكل عارف. ورُبَّ مُخبرٍ بشيءٍ عَقَلَهُ ولا يعرِفُ استقامتَهُ فَيُصدِّقُهُ، والذي يَفْعَلُ ذلكَ منَ النَّاسِ ثلاثةٌ: رجُلٌ يُصدِّقُ بما جرَّبَهُ غيرُه وصدَّقَهُ فيُصدِّقُهُ هُوَ ويَتمادَى في التصْدِيقِ حتى كأنما جرَّبَهُ بنَفسهِ، ورجُلٌ يُصدّقُ بالأمورِ التي جَرَّبها ولكن عن غير علم بحقيقتها، ورجل تلتبس عليه الأمور فيصدِّقُ بها، وينبَغي للعاقلِ أنْ يكُونَ لهوَاهُ مُتَّهِماً ولا يَقْبَلُ منْ كلِّ أحدٍ حدِيثاً ولا يَتمادَى في الخطَإِ إذا التَبَسَ عليهِ أمرُهُ حتى يتَبيَّنَ لهُ الصَّوابُ وتَتَّضحَ لهُ الحقيقةُ ولا يكونَ كالرَّجُلِ الذِي يجُورُ عن الطَّريقِ فيَستمِرُّ على الضلالِ فلاَ يَزْدادُ في السَّيْرِ إلاّ جَهْداً، وعنِ القصدِ إلاَّ بعْداً، وكالرَّجلِ الذي تَقْذَى عَيْنُه[٢] فلا يزالُ يَحُكُّها حتى رُبما كانَ ذلكَ الحَكُّ سبَباً لذَهابِها، ويجبُ على الْعاقلِ أنْ يُصدِّقَ بالقَضاءِ والقدَرِ ويأْخُذَ بالحزَمِ في أموره ويُحبَّ للنَّاسِ ما يُحِبُّ لنفسهِ ولا يَلتَمِسَ صَلاحَ نفسهِ بفسادِ غيرِه، فإنّ مَنْ فَعَلَ ذلكَ كانَ خَليقاً أن يُصيبَهُ ما أَصابَ التّاجِرَ منْ رفيقهِ.

[قصة الشريك الخائن]

فإنهُ يُقالُ: إنهُ كانَ رجُلٌ تاجرٌ وكانَ لهُ شَريكٌ فاسْتأجَرا حانُوتاً وجعَلاَ متَاعَهُما فيهِ، وكانَ أحدُهُما قرِيبَ المنزِلِ من الحانُوتِ فأضْمر في نفسهِ أنْ يسْرِقَ عدْلاً من أعْدالِ رَفيقهِ ومكَرَ الحيلةَ في ذلك، وقال: إنْ أتيتُ ليلاً لمْ آمَنْ أن أحمِلَ عِدْلاً منْ أعدالِي أو رِزْمَةً من رِزَمي ولا أعرِفَها فيَذْهَبَ عَنائي وتَعبي باطلاً، فأخذَ رِداءَهُ وألقاهُ على العِدْلِ الذي أضمَرَ أخذَهُ ثم انصرَفَ إلى مَنزِلِهِ، وجاءَ رفيقهُ بعدَ ذلك ليُصْلحَ أعدالَهُ فوجدَ رداءَ شَريكهِ على بعضِ

---

(١) التواني: الفتور.

(٢) تقذى عينه: أي أصابها قذى وهو الوسخ.

أعدَالهِ، فقالَ: والله هذا رِداءُ شَرِيكي ولا أحسَبُهُ إلاَّ قدْ نَسِيَهُ. وما الرَّأْيُ أنْ أدَعَهُ هٰهنا، ولكنْ أجعلُهُ على رِزَمِهِ فَلعلهُ يَسبقُني إلى الحانُوتِ فيَجِدُهُ حيثُ يُحِبُّ. ثم أخذَ الرِّدَاءَ فأَلْقاهُ على عِدْلٍ منْ أعدالِ رَفيقِهِ وأقْفَلَ الحانُوتَ ومَضى إلى منزِله. فلما جاءَ الليلُ أتَى رَفيقُهُ ومعهُ رُجلٌ قدْ واطَأَهُ[١] على ما عزمَ علي وضَمِنَ لهُ جُعلاً[٢] على حَملهِ فصارَ إلى الحانُوتِ في الظُّلمةِ فالتمَسَ الإزَارَ فوجدَهُ على الْعِدْلِ فاحتَمَلَ ذلكَ العِدْلَ وأخرجَهُ هو والرَّجُلُ وجعَلاَ يَتراوَحانِ[٣] على حَمْلهِ حتى أتَى مَنزِلَهُ ورَمَى نفسَهُ تعباً، فلما أصْبَحَ اْفتقَدَهُ فإذا هوَ بعضُ أعداله فندمَ أشدَّ النَّدَامَةِ ثمَّ انْطلَقَ نحوَ الحانُوتِ فوجدَ شَريكه قدْ سبقَهُ إليهِ ففتحَ الحانُوتَ وفَقَدَ العِدْلَ فاغْتَمَّ لذلكَ غمًّا شدِيداً وقال: وَاسَوْأتاهُ[٤] منْ رَفيقٍ صالحٍ قدِ ائْتَمَنَني على مَالهِ وخلَّفَني فيهِ ماذَا يكُونُ حالِي عنْدَهُ، ولسْتُ أشُكُّ في تُهمتِه إيَّايَ ولكنْ قد وطَّنْتُ[٥] نفسِي على غَرامتِه. فلمَّا أتَاهُ صاحبُهُ وجدَهُ مُغْتَمًّا فسألَهُ عنْ حالهِ فقالَ: إني قدِ افتَقَدْتُ الأعْدَالَ وفقَدْتُ عِدْلاً منْ أعدالِكَ ولا أعلَمَ بسَببِهِ، وإني لا أشُكُّ في تُهْمتِكَ إيَّايَ وإني قدْ وطَّنْتُ نفْسِي على غَرامتِه. فقالَ لهُ: يا أخِي لا تغتمَّ فإنَّ الخِيانَةَ شرُّ ما عمِلهُ الإنْسَانُ، والمَكرُ والخدِيعةُ لا يُؤَدِّيانِ إلى خَيْرٍ وصاحِبُهُما مغْرُورٌ أبداً وما عَادَ وبَالُ الْبَغْي إلاَّ على صاحبِهِ، وأنا أحدُ مَنْ مكَرَ وخَدَعَ واحتَالَ. فقال لهُ صاحِبُهُ: وكيْفَ كانَ ذلكَ؟ فأخبرَهُ خبرَهُ وقَصَّ عليهِ قصَّتَهُ، فقال لهُ رفيقُهُ: ما مَثَلُكَ إلاَّ مثَلُ اللّصِّ والتَّاجرِ. فقال لهُ: وكيْفَ كانَ ذلكَ؟

(١) واطأه: وافقه.
(٢) الجُعْل: الأجرة.
(٣) يتراوحان: يتناوبان.
(٤) واسوأتاه: من السوء أي الأمر القبيح يريد واخجلتاه.
(٥) وطنت: صممت.

[حكاية اللص والتاجر]

قالَ: زَعَمُوا أنَّ تاجِراً كانَ لهُ في مَنزِلِهِ خابِيتانِ إحداهُما مملُوءَةٌ حِنْطةٌ والأُخرَى ممْلُوءَةٌ ذَهَباً، فترَقَّبَهُ بَعضُ اللُّصُوص زَماناً حتى إذا كانَ بعْضُ الأيَّامِ تَشَاغَلَ التَّاجِرُ عنِ المنزلِ فتغفَّلَهُ[١] اللِّصُّ ودخلَ المَنْزِلَ وكَمَنَ في بعْضِ نوَاحِيهِ، فلمَّا هَمَّ بأخْذِ الخابيَةِ التي فيهَا الدَّنانيرُ أخذَ الَّتي فِيها الحِنْطَةُ وظَنَّها التي فِيها الذَّهَبُ، ولمْ يزلْ في كَدٍّ وتَعَبٍ حتى أتَى بها مَنزِلَهُ فلمَّا فتَحَها وعَلِمَ ما فِيها نَدِمَ.

قال لهُ الخائنُ: ما أبْعَدْتَ المثَلَ ولا تجاوَزْتَ القِيَاسَ وقدِ اعتَرَفْتُ بذَنْبي وخَطَئِي عَليْكَ، وعَزِيزٌ[٢] عليَّ أنْ يكُونَ هذا كَهذَا، غيرَ أنَّ النَّفْسَ الرَّدِيئَةَ تأمُرُ بالْفَحْشاءِ... فقَبِلَ الرَّجُلُ معْذِرَتَهُ وأضْرَبَ عنْ تَوْبِيخِه وعنِ الثِّقَةِ بهِ، ونَدِمَ هوَ عنْدَ ما عَايَنَ منْ سُوءِ فِعلهِ وتقْدِيم جَهلِهِ.

[ميراث الإخوة الثلاثة]

وقدْ يَنبغي للنَّاظِرِ في كِتابِنا هذا ألاَ تكُونَ غايتُهُ التَّصَفُّحَ لِتزاوِيقِهِ[٣] بَلْ يُشْرِفُ على ما يَتَضَمَّنُ منَ الأمثَالِ حتى يأتيَ على آخرِهِ، وَيقِفَ عندَ كلِّ مثَلٍ وكلِمَةٍ فيُعمِلَ فيها رَوِيَّتَهُ ويكُونَ مثْلَ الإخْوَةِ الثلاثَةِ الَّذِين خَلَّفَ لهمْ أبُوهمْ المالَ الكثيرَ فتنازعُوهُ بينهمْ فأمَّا الابْنانِ الكَبِيرانِ فإنهما أسْرعا في إتْلافِهِ وإنْفاقِهِ في غيرِ وَجْهِهِ، وأمَّا الصَّغيرُ فإنهُ عندَ ما نظرَ ما صارَ إليْهِ أخَواهُ منْ إسْرَافِهِما وتَخلِّيهِما منَ المالِ أقْبَلَ على نفسِهِ يُشاورُها وقال: يا نفْسي إنما المَالُ يَطْلبُهُ صاحبُهُ ويَجمعُهُ في كلّ وجهٍ لبَقاءِ حالهِ وصلاَحِ مَعاشِهِ ودُنْياهُ وشَرَفِ مَنزلتِهِ في أعيُنِ النّاسِ واسْتِغنائهِ عمَّا في أيْدِيهمْ وصَرْفِهِ في وجْهِهِ منْ

(١) تغفله: ترقب غفلته.

(٢) عزيز علي: شديد علي.

(٣) التزاويق: النقوش المزينة.

صِلةِ الرَّحِمِ والإِنْفاقِ على الوَلَدِ والإِفْضَالِ على الإِخْوانِ، فَمنْ كانَ لهُ مالٌ ولا يُنْفقُهُ في حُقوقِهِ كانَ كالذِي يُعَدُّ فَقيراً وإنْ كانَ مُوسِراً وإنْ هوَ أحْسَنَ إمْسَاكَه(١) والقيامَ عليهِ لمْ يَعْدَمْ أمْرَيْنِ: منْ دنْيا تَبقَى عليهِ، وحَمْدٍ يُضافُ إليهِ، ومتَى قَصدَ إنفَاقَهُ من غيرِ الوُجُوهِ التي حُدَّتْ(٢) لم يَلْبَثْ أن يُتلفَهُ ويبقَى على حَسْرَةٍ ونَدامَةٍ، ولكنَّ الرَّأيَ أن أُمْسِكَ هذا المالَ فإني أرجُو أن يَنفعَني الله بهِ ويُغْنيَ إخْوَتيَ على يَدِي فإنما هُوَ مالُ أبي ومالُ أبيهِما، وإنَّ أولَى المناهجِ الإنْفاقُ على صلةِ الرَّحمِ وإنْ بَعُدَتْ فكيفَ بأخوَيَّ. . فأَنفَذَ فأحضَرَهما وشَاطَرَهما مالَهُ.

[الصياد والصَّدَفة]

وكذلِكَ يجبُ على قَارِىءِ هذا الكتَابِ أن يُديمَ النَّظَرِ فيهِ من غيرِ ضجَرٍ ويَلتمِسَ جواهرَ مَعانيهِ ولاَ يظُنَّ أنَّ نَتيجتَهُ الإخبارُ عن حيلةِ بهيمتيْنِ أوْ مُحاوَرَةِ سَبُعٍ لثَوْر فينْصَرِفَ بذلك عن الغَرَضِ المقْصودِ، ويكُونَ مثلُهُ مثَلَ الصَّيَّادِ الذي كانَ في بعْضِ الخُلْجانِ يَصِيدُ فيهِ السَّمك فرَأى ذَاتَ يوْم في الماءِ صدَفةً تتلألأُ حُسْناً فتوَهَّمَها جوْهراً لهُ قيمةٌ، وكانَ قدْ ألْقَى شبكَتَهُ في البحْرِ فاشْتمَلَتْ على سمَكةٍ كانَتْ قُوتَ يومِهِ فَخلاَّها وقذَفَ نَفْسَهُ في الماءِ لِيأخُذَ الصَّدَفَةَ، فلما أخْرَجَها وجدَها فارِغةً لا شَيءَ فِيها ممَّا ظَنَّ، فنَدِمَ على ترْك ما في يدِهِ لِلطَّمَعِ وتأسَّفَ على ما فاتَهُ، فلَّما كانَ اليوْمُ الثَّاني تَنَحَّى عنْ ذلكَ المكانِ وألْقَى شبكَتَهُ فأصابَ حُوتاً صَغيراً ورَأى أيضاً صدَفة سَنِيَّةً فلمْ يَلتفِتْ إلَيْها وساءَ ظَنُّه بها فترَكَها، فاجْتازَ بها بعْضُ الصَّيَّادينَ فأخَذَها فوَجدَ فيها دُرَّةً تُساوِي أموَالاً. وكذلكَ الجُهَّالُ إذا أغفلوا أمْر التَّفكُّرِ في هذا الكتابِ وتَركوا الوُقُوفَ على أسْرارِ مَعانيهِ والأخْذِ بِظاهرِهِ دُونَ الأخْذِ

(١) إمساكه: ضبطه.

(٢) حدت: رسمت.

بِباطنهِ، ومَنْ صرفَ هِمَّتَهُ إِلى النَّظَرِ في أبْوابِ الهزْلِ فهُوَ كرَجُلٍ أصَابَ أرْضاً طَيِّبَةً حُرَّةً وحَبًّا صَحيحاً فزَرَعَها وسقَاهَا حتى إذا قَرُبَ خيْرُها وأيْنَعَتْ تَشاغلَ عنهَا بجَمْعِ ما فيها منَ الزَّهْرِ وقَطْعِ الشَّوْكِ فأهْلَكَ بتَشاغلِهِ ما كانَ أحْسَنَ فائِدَةً وأجمَلَ عائِدَةً[1].

(١) عائدة: منفعة.

obeikandl.com

[أغراض الكتاب وأبوابه:]

ويَنبغي للنَّاظرِ في هذا الكتابِ أنْ يَعلَمَ أنهُ يَنقسِمُ إِلى أرْبعةِ أعرَاضٍ: **أحدُها**: ما قُصدَ فيهِ إِلى وَضْعِه على أَلْسِنةِ البهائِم غير النَّاطقَةِ ليُسارِعَ لقرَاءَته أَهْلُ الهَزْلِ منَ الشُّبَّانِ فتُسْتَمالَ بهِ قُلوبُهمْ لهُ لأَنهُ الغَرَضُ الوارِدُ منْ حِيَلِ الحيوَاناتِ، **والثَّاني**: إِظْهارُ خَيالاَت الحيوَاناتِ بِصُنُوفِ الأَصْباغِ والأَلْوانِ لِيكُونَ أُنْساً لقُلوبِ المُلوكِ ويكُونَ حِرْصُهمْ عليهِ أشَدَّ للنزْهَةِ في تلكَ الصُّوَرِ، **والثَّالثُ**: أنْ يكُونَ على هذهِ الصَفةِ فيتَّخِذَهُ الملُوكُ والسوقةُ فيكثُرَ بذلكَ انْتِساخُهُ ولا يَبْطلَ فيَخلَقَ على مُرُور الأَيَّام، وليَنْتفِعَ بذلكَ المُصَوِّرُ والناسخُ أبداً، **والغرَضُ الرّابعُ**، وهوَ الأقصى: مخصُوصٌ بالفيْلسُوفِ خاصَّةً، أَعْني الوقُوفُ على أسْرارِ مَعَاني الكتابِ الباطِنَةِ.

قالَ عبدُ الله بنُ المُقفَّع: لمّا رأيْتُ أهلَ فارِسَ قدْ فَسَّرُوا هذا الكِتابَ منَ الهِنْدِيّةِ إِلى الفارسيّةِ وألحَقُوا بهِ باباً وهوَ بابُ بَرْزوَيْهِ الطَّبيب، ولم يذكُرُوا فيهِ ما ذَكَرْنا في هذا البابِ لِمَنْ أرادَ قراءَتَهُ واقْتِباسَ عُلومهِ وفوائدِهِ وضعنَا له هذا الْبابِ فَتأمَّلْ ذلكَ تُرْشَدْ، إِنْ شاءَ الله تعالى.

obeikandi.com